حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
1426هـ - 2005م

المملكة الأردنية
الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(2005 / 4 / 727)

813.9565
الشريدة ، عبد العزيز كليب
عذراء الحيرة / عبد العزيز كليب الشريدة – عمان
المؤلف ، 2005 .
( ) ص .
(2005/4/727)
المواصفات : الروايات العربية // القصص العربية // العصر الحديث // الأردن /

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

عذراء الحيرة

عذراء الحيرة

تأليف الدكتور

عبد العزيز كليب الشريدة

الإهداء

أهدي هذه القصة إلى كل مجاهد في سبيل الله تعالى يتخذ سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه أسوة وقدوة بطل حروب الردة وفتوح العراق وقاهر الروم باليرموك والذي أبى أن يموت مضطجعاً على فراشه بل واقفاً متكأ على سيفه وهو يقول "خضت نيفاً ومائة زحف وما من شبر في جسمي

إلا وبه ضربة من سيف أو طعنة من رمح وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء" .

المؤلف الدكتور
عبد العزيز كليب
الشريدة

المقدمة

نبذة عن تاريخ الحيرة

موقعها : تقع الحيرة بالقرب من فرات بادقلي على بعد ثلاث أميال جنوباً من الكوفة وهي ليست بعيدة عن بابل وقرب النجف .

كانت الحيرة مدينة جميلة مزدهرة عامرة بالبنيان يؤمها النساب والشعراء المجيدين مثل طرفة بن العبد ة والحارث بن حرزة وعمرو بن كلثوم وغيرهم . اشتهرت الحيرة بقصورها مثل الخورنق الذي كان بظاهرها ومن قصورها أيضاً السدير وكان في البداية والقصر الأبيض وقصر العدسيين وغيرها من القصور لكبار عائلاتها .

وقد كانت السواقي و الترع تخترق أراضيها وسهولها فازدانت السهول بحقول الحبوب على اختلافها وحدائق النخيل وكانت طيبة الهواء لطيفة المناخ حتى قال العرب في وصف مناخها "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنين" .

بناء الحيرة

أول من بنى الحيرة أو الحير هو بختنصر وأما سبب بنائه لها أنه أراد أن

يغزو بلاد العرب وحتى يطمئن على مؤخرته عدا على العرب والتجار العرب الموجودين في مملكته واعتقلهم وبنى لهم الحير "وما نسميه الحظيرة" وحصنه وجعل عليه حارس .

فلما سمع العرب بنية بختنصر غزوهم وحربهم خرجوا إليه مسالمين مستأمنين فصفح عن حربهم وأنزلهم السواد على شاطئ الفرات و ابتنوا لهم موضعاً سموه الأنبار . وهكذا خلى بختنصر عن أهل الحيرة أو الحير وبقوا فيها وابتنوا لهم منازل وما زالوا كذلك مدة حياة بختنصر فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار . وبقي ذلك الحير خراباً يباباً .

وغبروا زماناً طويلاً لا تطلع عليهم طالعة من بلاد العرب ولا يقدم على أهل الأنبار قادم من جزيرة العرب ومن انضم إليهم من أهل الحيرة .

فلما كثروا أبناء معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب وملئوا بلادهم من تهامة وما يليهم من بلاد العرب . فرقتهم حروب وقعت بينهم وأحداث حدثت لهم عندها خرجوا يطلبون المتسع والريف مما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام . وأقبلت قبائل منهم حتى نزلوا البحرين وبها جماعة من الأزد وهكذا اجتمعت جماعات من العرب وتحالفوا على التنوخ وهو "المقام" وتعاقدوا على التآزر والتناصر وضمهم اسم تنوخ ثم تنخ عليهم بطون من نماره بن لخم . وبعد زمن مضى عليهم في البحرين تطلعت نفوسهم إلى ريف العراق وطمعوا فيه وما عليه الأعاجم مما يلي بلاد العرب أو مشاركتهم خيرات العراق على الأقل .

اهتبلوا فرصة ضعف ملوك الطوائف من الفرس فأجمع رؤساؤهم على المسير إلى العراق . وهكذا نزل كثير من تنوخ الأنبار الحيرة وما بين الحيرة إلى طف الفرات وغربه إلى ناحية الأنبار لا يسكنون بيوت المدر واتصلت جماعتهم فيما بين الأنبار والحيرة وأضحوا يسمون عرب الضاحية .

وكان أول ملك منهم هو مالك بن فهم ثم أخوه عمرو بن فهم وبعد هذين ملك الملك جذيمة الأبرش بن مالك الأزدي . وسمي بالوضاح والوضاح هذا كان أول ملك من العرب استجمع له الملك بأرض العراق وضم إليه العرب وغزا بالجيوش فخافته العرب وكان شجاعاً مقداماً وكان به برص وخوفاً منه كانوا ينادونه جذيمة الأبرش أو جذيمة الوضاح .

كانت منازل جذيمة الوضاح بين الحيرة والأنبار وعبد أن قتلته ملكة تدمر بالحيلة المعروفة ملك الملك بعده ابن أخته رقاش وكان يدعى عمرو بن عدي بن نصر اللخمي وهذا أول ملك اتخذ الحيرة منزلاً له .

وهكذا اتصل له ولعقبه من بعده الملك على ما كان بنواحي العراق وبادية الحجاز من العرب وذلك باستعمال الأكاسرة إياهم على ذلك واستكفائهم أمر من وليهم من العرب .

ومكث آل نصر اللخمي ملوكاً على الحيرة زماناً طويلاً إلى أن قتل كسرى إبرويز بن هرمز آخر ملوكهم النعمان بن المنذر ونقلت ملوك فارس الملك إلى غيرهم من العرب . ولكن في هذه المرة لم يكن الذي يلي الحيرة حراً في تصرفه

وملكه إذ كان ملوك فارس يعينون معه مستشاراً فارسياً يسمى المرزبان .

بعد مقتل النعمان بن المنذر وبعد وقعة ذي قار المعروفة قلد كسرى إبرويز إياس بن قبيصة الطائي تقديراً له على مساعدته كسرى وقيادته جيوش الفرس و العرب التي اجتمعت لقتال قبائل بكر بن وائل وبطونها من بني شيبان وبني عجل في يوم ذي قار وذلك اليوم انتصرت فيه قبائل بكر بن وائل على جيوش فارس بقيادة إياس بن قبيصة وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلهم : "هذا أول يوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا" .

كما أسفلت بعد ملوك آل نصر آخذ الأكاسرة يولون فارسياً مع الحاكم العرب .

وأحداث هذه القصة دارت في زمان إياس بن قبيصة والمرزبان المدعو الآزاذبة .

هذه القصة حدثت وما دوري في الموضع إلا دور الراوي الذي يروي على لسان أبطالها ما دار من أحاديث وحكايا وأحداث .

الفصل الأول

على حافة غدير من غدران الحيرة الكثيرة غزيرة مياهه متشابك أيكه تحف به أشجار النخيل الباسقة والمروج الخضراء والأزهار الجميلة المختلطة الألوان كفراشات نيسان والوقت أصيل قبل الغروب وقرص الشمس كأنه قطعة ملتهبة أوشكت أن تسقط في بحر الأفق لتبترد وتستحم لتنفض عنها عناء سفر يوم طويل لتبدأ من جديد مشرقة نشطة مشعة أنوارها التي تبعث الخير والحياة على هذه الأرض الباقية وما أراد لها الله سبحانه وتعالى البقاء .

على حافة ذلك الغدير في تلك الأمسية الشاعرية جلست فتاتان عربيتان جميلتان أحدهما تكبر الأخرى بضع سنين وبعد أن تقترب منهما قليلاً تعرفهما إذا هما كرامة بنت أبي عمرو اللخمي وأبوها من عرفنا نسباً ومقاماً من الحيرة والتي تجلس معها وصيفتها ومربيتها صفية وهاتان هما تتجاذبان أطراف الحديث .

كرامة : أي صفية ؟؟ تُرى لماذا تأخر شويل عن المجيء والشمس أوشكت على المغيب ، تالله لهذا القلب الذي لا يطيق له نأياً .

صفية : هوني عليك يا حبيبتي سوف يحضر عما قليل والغائب معذور حتى يحضر.
كرامة : إنك تعرفين أني لا أطيق له فراقاً ولا بعداً وأخشى أن يكون قد حدث له مكروه في يوم صيده هذا .
صفية : لما هذه الهواجس ثم إنه فارس مجرب شديد المراس لا يخشى عليه . و لابد أن يحضر بين فنية وأخرى وافر الصيد ، فلا تبتئسي وطيبي نفساً ثم لا تنسي أن معه غلمانه ومواليه .
كرامة : أجل أعرف وأعرف أن معه صديقيه سعيد بن عمرو وعتبة بن النهاس .
صفية : ما دمت تعرفين ذلك إذن لماذا أنت مشغولة الخاطر ، ما رأيك بهذا السباق الذي يجري بعد غد بين أبناء العشيرة والعمومة .
كرامة : رأيي بهذا السباق أنه سيكون مجلبة للشر والنحس .
صفية : إنك اليوم كثيرة التشاؤم يا كرامة . ولما الآن أخاك عمرواً قد تحدى شويلاً في السباق .
كرامة : أجل يا صفية إن هذا يشغلني ويقلق بالي إذ أن أخي كما تعرفين ينظر لشويل كأنه منافس له بل عدو حاسد ، علماً بأن شويل يكن له الود وخالص المحبة .
صفية : فعلاً إنه يكرهه ، ثم والله لا أدري لم أخوك لا يطيق شويلاً ؛ لعله لا يزال يذكر أيام الطفولة الغابرة .
كرامة : أتعنين يوم صرع شويل عمرواً .
صفية : أجل ذاك ما عنيت إذ كانوا يحتفلون بعيد النيروز ومن عادة الآباء أن يجعلوا أبنائهم يتصارعون أمامهم وقد صرع شويل عمرواً أمام والديهما وبقية فرسان ووجهاء القبيلة .
كرامة : إنني كنت صغيرة كما تعلمين ولتلك الحادثة ستة عشر سنة وأشك أن يكون أخي يحقد بسببها على شويل إذ كانا غلامين لا يزيد عمراهما عن العاشرة .
صفية : إذن ماذا غير تلك الحادثة . إنني أكبر منك وأعرف أيضاً أن عمروا لا يدع مناسبة إلا ويحاول أن ينال بها من شويل ويحط من قدره .
أو أعلميني هل لاحظ أن هناك علاقة بينكما ؟؟
كرامة : لا أعرف ، ولكن أشعر وكأنه يحس بأن هناك شيئاً ما . إذ يحاول أن يحقره أمامي وأنا أدافع عن شويل بالتي هي أحسن ومن طرف خفي خشية أن يعرف شيئاً .
أوه ماله تأخر للآن الشمس أوشكت على المغيب .
صفية : تضع يدها على جبينها وتحدق النظر في الأفق كأنها تستكشف شيئاً و تتطاول بعنقها وتقول انظري إلى ذاك الفارس القادم من بعيد على صهوة جواده .
كرامة : إنني أرجو أن يكون هو ، لقد عل صبري .

صفية : تمهلي يا بنيتي ويهاً كأنك لم ترينه من سنين ، ها هو بدأ يقترب والغبار ينشق عنه ، إنه ...
كرامة : أجل أجل ، إنه هو ، حماً لك يا رب ، وأخيراً عاد ، يا لقلبي لما كل هذا الوجيب ، آه إنني أعشر برعدة تسري بأوصالي ، يا إلهي امنحني العزم وآتني القوة حتى لا يظهر ضعفي أمام من أحب .
يصل شويل عند المغيب بعد أن يكون قد ودع صاحبيه وسبق غلمانه وخدمه .
شويل : عمتما مساءً ، عمت مساءً يا كرامة .
تردان التحية بمثلها قائلتين عمت مساءً يا شويل .
كرامة : لما هذا التأخير يا شويل ، إن قلبي كاد يحترق من لظى الانتظار ، كأنك لا تعاني مثل ما أعاني . وأشاحت بوجهها عنه بدل وعتب .
تنسل صفية من عندهما وتختفي و راء شجرة على الطريق المؤدية إلى الحيرة وكأنها ترقب لهما الطريق وتحرسهما .
شويل : صه ... كيف تقولين مثل هذا الكلام ، إن ما بي أضعاف ما بك ، إنك كل شيء بالنسبة لي ، أراك في كل شيء جميل ، أنت جليسي في يقظتي وسميري في أحلامي ونومي . أنت رفيقة دربي إذا طالت وأمل مستقبلي ، إذا عشت فمن أجلك ، إنك التعويذة التي أتعوذ بها من كل مكروه .
كرامة : كفى كفى ، لقد صدقتك ، بل أنا أصدقك دائماً إن بحت لي أم لم تبح ، إن أفشيت لي سر قلبك أو لم تنفش ، وكيف لا أصدقك وأنا أقاسي لوعة حبك ولواعج شوقك ؟ هذا الحب الذي لو وزع على أهل الأرض لما بقي بغض ولا كراهية .
شويل : يا حبيبتي "ويتقدم منها أكثر ويمسك رؤوس أناملها بين يديه ، كم أنا أحبك وإنني لأفديك بروحي ودمي وبكل غال وعزيز . آه متى تأتي تلك اللحظة المناسبة لأتقدم لك خاطباً من والدك الكريم .
تشيح عنه وجهها بغنج ودلال وتحاول أن تغير مجرى الحديث .
كرامة : قل ماذا أنت فاعل يوم السباق .
شويل : آه ذكرتني ... والله إن عذب حديثك وطلبي كلامك ووجهك الباسم الجميل قد أنسانيه . إن أردت أن تعرفي شعوري فأنا على أحر من الجمر لذاك اليوم وحتى أرد الصاع صاعين لمن تحداني وتعمد إهانتي .
كرامة : أخي تقصد ؟؟ ...
شويل : يا حبيبتي إنني أحاول الابتعاد عنه وعن طريقه وعدم تحديث أو التعرض له إكراماً لهذا الوجه السمح والقلب النبيل الذي تحملين . ولكن يأبى إلا ذلك ، فماذا أصنع؟؟
كرامة : دعك منه أرجوك .
شويل : ماذا تقصدين ؟؟ وكيف دعني منه ؟؟

كرامة : أقصد أن "وتتردد وتتلعثم" ثم ت قول لا شيء لا شيء .
شويل : وكيف لا شيء بالله عليك إلا حدثتني .
كرامة : أخاف أن أغضبك .
شويل : يتساءل بتعجب وبصوت فيه ارتفاع قليل .
منك أغضب ؟؟ .. معاذ الله ، ثم يضحك ضحكة ا ستهجان دلالة على أنه لا يمكن أني غضب منها إطلاقاً مهما كانت الأسباب ، وبعد أن سكت أضاف كيف .. ؟؟ وهل يستطيع الجسم أن يغضب من قلبه أو أن يعادي روحه ؟
كرامة : أجل إنني أخاف غضبك .
شويل : تظهر عليه بوادر الاهتمام والجد بما تقول ويقطب قليلاً ما بين حاجبيه ويتساءل "بربك ما هذا الذي تقولين ، ما هذا الذي تخافين قوله لئلا أثور غضباً . أهو مهم لهذه الدرجة ؟"
بالله عليك تحدثي لقد عيل صبري .
كرامة : أريد أن أقول .. أقول ثم تتردد " ويقابل شويل ترددها باضطراب وقلق " أريد أن أثنيك عن مسابقة عمرو أو تدعه يسبقك ، هيه ما رأيك ؟؟
ارتبك شويل و عبس وجهه وقطب جبينه ولدهشته صمت ، فما يحير جواباً .
كرامة : يا إلهي ، ماذا ؟ هل غضبت ..؟؟ هل أغضبتك ؟؟
شويل : صامت لا يجيب بل أشاح بوجهه عنها .
كرامة : دارت وقابلته ثم سألت : أجب ، لماذا لا تجيب هل غضبت مني ؟ بالله عليك أن تجيبني ، لقد مزقت قلبي : يا تعسي .
شويل : يشفق عليها ، وبعد تردد وأناة أجابها بصوت خافت وجهد طاقته أن يجعله عادي النبرات : لا ... لم أغضب ، ولكنك فاجأتني بهذا الطلب .
كرامة : إنني أريد لك الخير ، بل أريد لي ولك الخير ، لم أطلب منك ذلك إلا من أجلنا .

شويل : خير ؟؟ .. أي خير هذا ؟؟ .. أي خير من الذل أتعرفين ما تطلبين ؟؟ إنه الذل أجل إنه الذل بين الأهل والعشيرة ، ثم ما عسى فرسان الحي يقولون ؟ شويل خاف عمرواً فانسحب خوفاً وهلعاً ؟
كرامة : يا ويلي ... وتعست كرامة ... إنني ... إنني لم أقصد ذلك ، بل خفت عليك.
شويل : بئس ما أسمع من حبيبة القلب ، أي خوف هذا ؟ أترضين العيش مع ذليل بلا كرامة ، لا يا ابنة العم ، لا ، كل شيء إلا هذا ، أجل كل شيء إلا الذل " يقولها بصوت مرتفع " .. وينصرف إلى جواده غاضباً ويقفز ، فإذا هو على صهوته ثم يهمزه فيذهب به يسابق الريح .
كرامة : تصرخ يا ويلي شويل ... شويل مهلاً أرجوك افهمني ... ذهبت صرخاتها أدراج الرياح .

وهنا أتت صفية على صراخ وعويل كرامة .
صفية : ماذا هناك ؟؟ ما هذا الذي أسمعه ؟ ماذا جرى ؟ مالي أرى شويلاً ينصرف مسرعاً ؟ هل حدث شيء ؟ أرجوك قصي لي .
كرامة : تنتحب ولا تجيب .
صفية : بالله عليك هلا هدأت وأجبتني أريحي بالي أرجوك ؟ تواصل الانتحاب " يا بنيتي العزيزة إن بكائك يقطع كبدي وا لهفي عليك يا كرامة ماذا جرى لك ؟
كرامة : تستمر في الانتحاب والبكاء المصحوب بالنشيج وعبراتها تنهل على خديها كحبات اللؤلؤ لا تحير جواباً .
صفية : تكفكف دمعها بمنديلها وتهدهدها وتطيب خاطرها ، طيبي نفساً يا ابنتي وقري عيناً ، هلا حدثتني لعلي أساعدك لعلي أساعدك أفرج بعض غمك وأزيل بعض كربك .
كرامة : بعد لأي وجهد سيطرت على نفسها وأخذت تحدث صفية عما حدث بينها وبين شويل ، ولقد طلبت منه أن يدع أخي عمرواً يسبقه في يوم السباق .
صفية : تندهش لهذا الطلب وتقول : ماذا ... ؟ ماذا أسمع ، وهل جننت يا كرامة ؟
كرامة : لا لم أجن ، ولكن قصدت خيره وخيري حتى لا يكون هذا السباق سبباً ببعده عني .
صفية : يا ابنتي إنك لا تعرفين الرجال ومدى اعتزازهم بأنفسهم ، ثم إنك لا تعلمين ما للسباق من أهمية عند الرجال ، وكيف أحدهم يشعر بالحسرة والألم يعتصره إذا سبقه سابق ، إذ يعتبرون السباق فروسية وشجاعة ، ويتعلق مباشرة في كرامتهم ونجدتهم ، ولذا فالكرامة عند عظماء الرجال فوق الحب وفوق القلب . وكم من حبيب عاشق داس على حبه في سبيل كرامته . ثم إنك تعلمين ما لهذا السباق بالذات من أهمية . إذ تعرفين إنه سوف يُنصب فارساً للقبيلة من يسبق بقية الفرسان ، وهذه فرصة ثمينة لا يدعها شويل تفوته .
كرامة : كفى بالله ما قصدت إلا الخير ، ولا تثقلي علي ، كفاني غماً وتعاسة بغضب شويل .
صفية : على كل حال قري عيناً وطيبي نفساً ، سوف أحدثه وأشرح له قصدك وأزيل ما علق بنفسه إن علق شيء ، وسوف أخبره أنك تصرين على اشتراكه بالسباق .
كرامة : أطال الله عمرك يا من تقومين مقام أمي . إذن هيا بنا لنعود إلى القصر حتى تتمكني نم ملاقاة شويل بقصره وتحدثيه بهذا .
صفية : هيا بنا واطمئني ولا تنزعجي .
تعودان إلى قصر والدها في المدينة ، وبعد أن دخلتا القصر وفي بهوه الكبير يلاقيها أخوها عمرو ومعه عدي بن عدي المقتول ، وهذا أيضاً يطمع بكرامة ويرغب في الزواج منها ، وإن كانت لا تبدي له إلا الصد والابتعاد .

الفصل الثاني

عمرو : مرحباً بهما قائلاً : أهلاً أهلاً كرامة ، أين كنتما ؟
كرامة : كنا نقوم بنزهة قصيرة خارج القصر .
عمرو : إن الاستعدادات للسباق قائمة على قدم وساق ، وأوشكت أن تنتهي .
كرامة : " باقتضاب تجيب " أحقاً ذلك ؟
عمرو : أجل وقد نصب صيوانك في آخر الميدان وأعد مكان كل قبيلة وزينت الساحات والطرقات بالرايات والبيارق .
كرامة : لا أدري لماذا ؟؟؟ إنني أشعر باقتضاب في نفسي واكتئاب خاطري ... صراحة أنا خائفة من هذا السباق ، لماذا لا تصرفون النظر عنه ؟
عمرو : وكيف ذلك ؟ هل نسيت إنني قد تحديث شويلاً وإن السابق فيه سوف يكون فارس قبائل الحيرة وعرب الضاحية ؟
كرامة : إنني ما نسيت أبداً ، ولكني أتوجس شراً من هذا السباق .
صفية : فعلاً إنني وكرامة خائفتان من هذا لسباق ، وما قد يجره علينا من المتاعب التي نحن في غنى عنها وخصوصاً بسبب تحديك هذا .
عمرو : هوناً عليكما ، ولا تشغلا بالكما إلا بالذي يهمكما ، واستعدي يا كرامة ليوم السباق كي تعطي الفارس قصب السبق ، وسوف أكون أنا بالطبع " يغمز بعينه عدي وهو يسأل " أليس كذلك يا عدي ؟
عدي : بالطبع بالطبع ، ومن سيكون غيرك يا عمرو ؟

كرامة : يا أخي الحبيب ، أرجوك دعك من هذا التحدي وأعلن في القوم أنك لا تريد تحدي شويل ، إنه ابن العم والعشيرة وما يجدر بكما الاختلاف خصوصاً بعدما سمعتم من أخبار ذلك القرشي محمد الذي ظهر بجزيرة العرب .
عمرو : ما هذا يا أخية ، ما الذي أسمع ؟؟؟ أتفضلين شويلاً على أخيك ؟
كرامة : حاشا لله ما إلى هذا قصدت ، ولكني لا أريد لكما الاختلاف الذي يجلب الشر والفساد وأنتما أحوج ما تكونان إلى المودة والألفة .
عدي : ما هذا يا كرامة ؟ أتضنين بالمجد على أخيك ؟ قالها وكأنه يحرض عمرواً على عدم الالتفاف على نصائحها .
فهمت صفية وكرامة مغزاه ومرماه وماذا يريد .
صفية : لا تزيد النار اشتعالاً يا ابن عدي ، ولا تقل إلا خيراً أو اصمت كما كنت صامتاً .
عدي : وهل هناك خير أكثر من أن ينصَّب عمرو فارساً للحيرة وقبائلها ؟
صفية : ولكن افرضا وقع المحذور ولم يفز بالسباق ، ماذا أنتما فاعلان ؟

عمرو : "بلهجة آمرة غاضبة" صه يا امرأة ، ومن يجرؤ على ذلك ، وعندها سوف أذيقه وبال فعلته .
عدي : ومن يجرؤ على سبق عمرو فارسنا وابن سيدنا ؟ ثم لا تنسي أنه ممتطي ظهر ...
كرامة : أراكما أيضاً نسيتما شويلاً ، وهل نسيت شويلاً يا عدي وجواده الأدهم الذي يسبق العاصفة ؟" تنظر إليه شزراً " .
عمرو : " مستاءً وغاضباً" شويل ... شويل دائماً شويل ، نعم سوف أذيقه وبال فعلته إن فعلها .

كرامة : هذا الذي كنت حدثتك عنه يا أخي . إن شويلاً ابن العم والأحرى بكما التصافي والتواد للأيام المقبلة والتي أراها مدلهمة كقطع من الليل الأسود .
عدي : أراك يا كرامة قد أصبحت تنجمين وتعرفين بقابل الأيام ، أتقصدين ذلك القرشي؟ اطمئني إنه يلاقي العنت والضيم من أهله وعشيرته ، وما هي إلا أياماً ونسمع ما يفرحنا بشأنه من القضاء عليه .
صفية : تلك أمانيك يا عدي . إن الأخبار تقول إن أمره سائل إلى الاشتداد ، وأنه بمهاجره إلى يثرب مع أصحابه وتأييد أوسها وخزرجها له يخرج من نصر إلى نصر .
عدي : اصمتي يا لسان السوء ، ولا تقاطعي الأحرار إذا تكلموا .
كرامة : دع عنك مربيتي ولا تعرض بها .
صفية : هو كذلك دائماً حاد الطبع شرس المعشر سيء الخلق .
عدي : غاضباً يتقدم نحو صفية رافعاً يده يريد أن يضربها .
عمرو : على رسلك عدي ما هذا ؟ إن صفية بمنزلة الأم من كرامة" ناظراً إليه بنظرة ذات مغزى ، أي إذا كنت تريد كرامة فلاطف صفية ووادها" .. ولا يليق بك إلا ملاطفتها واحترامها ، ثم موجهاً كلامه إلى كرامة وصفية : هيا أنتما الآن واستعدي يا كرامة ليوم السباق سيكون يوماً مشهوداً .
تذهبان ، ولكن صفية تتباطأ وتقف في مكان ترى وتسمع وهما لا يرياها .
عدي : كم أكرهه كم أكرهه .
عمرو : من ؟ شويل ؟ وأنا كذلك .
عدي : إنني أكرهه لأنني أشعر أن كرامة تكن له بعض الود .
عمرو : أنت واهم يا صاح ، إن قلب كرامة خالي بل أخلى من قلب طفل .
عدي : أنا الواهم يا عمرو ؟ أرجو ذلك ، ولكن لما كل هذا لاهتمام به ورجاؤها لك بشأنه ؟
عمرو : إنها لا تريد لنا إلا الوفاق وإبعاد شبح الشر عن ديارنا وخصوصاً بعد ما سمعت حديثها عن ذلك القرشي محمد .

عدي : ذلك القرشي ... فعلاً إنه يؤرق مضجعي وبدأت أفكر فيه وفي دعوته ، وإن الركبان سائرة بالحديث عنه .
عمرو : وبماذا يتحدثون عنه ؟
عدي : يقولون أنه يدعو لعبادة إله واحد ، وأنه نبي مرسل من عند الله ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق والقضاء على كثير من عاداتنا ، ويدعو إلى مساواة الناس كبيرهم وحقيرهم ، قويهم وضعيفهم ، الناس عنده سواسية لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى.
عمرو : وهل تابعه أحد ؟
عدي : ومن تظن يتابعه ؟ إنهم العبيد والمستضعفون والفقراء وقلة قليلة من عشيرته قريش . ولكن ألم تسمع أيضاً هذه الماكرة صفية ؟ إنها تقول إن أهل يثرب أوسها وخزرجها قد تابعوه ، وفي هذا قوة له إن صدقت .
عمرو : هذا لا يهمنا الآن ولا يفيدنا ، دعنا منه الآن " يتثاءب نعسانا " أرى كأني قد نعست ، وأود أن آوي إلى فراشي .
عدي : هكذا باكراً وكأنك فعلاً لا فتكر بشويل وما قالته أختك ، هب أنه سبقك فماذا أنت صانع بذلك الزنيم ؟
عمرو : سوف أقتله أليس كذلك ؟
عدي : هكذا تقتله على رؤوس الأشهاد وتثير النقع في ديارنا ؟
عمرو : إذن ماذا ترى ؟؟
عدي : أجل أرى أن يقتل ولكن ليس علانية .
عمرو : وكيف ذلك ؟
عدي : دع لي الأمر أتدبره والآن سأدعك تأوي إلى فراشك ، عمت مساءً .
عمرو : أجل سأدع لك الأمر ، ولكن إياك وأن يسلم .
عدي : لا تقلق علي بمثل هذا الأمر .
عمرو : فعلاً إنك لها وهي لك ، عمت مساءً ، عمت مساءً .

في أثناء حديثهما كانت صفية ترقبهما وتسمع بعض حوارهما ونقاشهما ، وإن لم تسمع جميع ما تحدثا به ، ولكنها أيقنت أنهما يدبران مكيدة تودي بشويل للمهالك . أسرعت لتلحق بكرامة .
صفية : "بادية الاضطراب والقلق وتنادي بصوت منخفض النبرات " كرامة كرامة .. " تلتفت كرامة نحوها وترى شحوبها و خوفها " تهمس صفية لكرامة " يا للهول ما سمعت " .
كرامة : ماذا يا صفية ، مالي أراك هكذا إن قلبي يكاد يقف . ما وراءك ؟؟
صفية : ورائي مصيبة نازلة وبلاء واقع .
كرامة : " تقترب نحوها وقد تغير هي الأخرى لونها وزادت دقات قلبها " ماذا يا صفية هل أصابك مكروه ؟

صفية : سوف يقتلونه ، أجل إنهم سيقتلونه .
كرامة : بماذا تهذين يا صفية ؟

صفية : إنني لا أهذي ، إنني بكامل عقلي ووعيي .
كرامة : إذن أبيني وأفصحي .
صفية : لقد أنصت وسمعت كلامهما .
كرامة : قولي ماذا سمعت تكلمي أرجوك لا تزيدي من بلبالي وعذابي .
صفية : سمعتهما يأتمران بقتله .
كرامة : من هو ؟ من الذي سيقتلونه ؟
صفية : صبراً كرامة دعيني أتحدث .
كرامة : هلا تحدثت بسرعة وإيجاز ؟
صفية : لقد سمعت أخيك وعدي يتهامسان بعد انصرافنا ويقولان يجب أن يقتل .
كرامة : ومن سيقتلان ؟؟ شويلاً ؟؟
صفية : ومن عساه يكون إن لم يكن شويل ؟
كرامة : "ترتجف شفتاها ويكفهر وجهها وتتهاوى إلى أقرب مقعد وهي تهمس باسم شويل وقد جف لسانها ويبس حلقها" سوف يقتلون شويلاً إذن يا للمجرمين . ولماذا يقتلونه ؟؟
صفية : ما هذا الغباء وما عهدتك غبية .
كرامة : آه من ذلك السباق ؟ ثم تنتفض مذعورة واقفة عن المقعد كأنها لبؤة خافت على أشباها" وصاحت : لا لا لن أدعهما يتمان مؤامرتهما الخسيسة ، أجل لن أدعهما ، سوف أخبر والدي الآن وتتجه نحو باب غرفته .

صفية : " تلحق بها وتمسكها من ذراعها" مهلاً كرامة ، وبماذا سوف تخبرينه ، ثم ليس لدينا دليل على هذا .
كرامة : تعود وتجلس على حافة سريرها وتضع رأسها بين يديها وهي تجهش بالبكاء " إنني محتارة لا أعرف ماذا أصنع . بربك صفية ما الحل إذن ماذا نعمل لوقف هذه الجريمة النذلة ؟
صفية : " تفق بقرب أ حد النوافذ وهي تعمل تفكيرها وتقدح زناد عقلها هي تردد بصوت شبه مسموع : نعمل ... ماذا نعمل ..." آه سوف أذهب وأخبر شويلاً بكل ا لذي جرى .
كرامة" تهب واقفة مقتربة منها وقد بدا على وجهها بعض الارتياح لهذه الفكرة" أجل اذهبي أسرعي ولا تبطئي علي ، وإياك والعيون ، خذي معك مبروك خادمي الأمين.

الفصل الثالث

عاد شويل إلى قصره الذي يقع خارج الحيرة يكاد يتمزق غيضاً وألماً مفكراً بالذي قالته كرامة .

دخل القصر غاضباً لا يلوي على شيء ، ودخل إلى غرفته وطلب أن لا يزعجه ولا يقطع عليه خلوته أحد أصدر أوامره هذه إلى خادمه جبير ودخل غرفته وأوصد عليه بابه وغرق بتفكير عميق بما قالته له كرامة ، لا يقر له قرار مرة على المقعد وأخرى يسير بالغرفة ذهاباً وإياباً ومرة يقف أمام النافذة يزفر زفرة حرّى .

أم شويل : أين سيدنا يا جبير ؟

جبير : إنه في غرفته يا سيدتي .

شويل : في غرفته ؟؟ ولما ؟ إنه لم يمر علي كعادته كلما عاد من صيده .

جبير : لا أدري سيدتي كما وأنه غاضب على غير عادته .

أم شويل : غاضب ؟؟ ويحك وما سبب غضبه ؟ ألا تعرف ؟؟

جبير : لا أدري سيدتي . كما وأنه طلب أن لا أدع أحداً يدخل إلى غرفته .

أم شويل : طلب منك هذا أيضاً ؟؟ ويلي ماذا يحدث هنا ؟ إليك ع ني سأدخل عليه.

جبير : سيدتي أرجوك .

أم شويل : ويحك أتمنعني أيضاً ؟

جبير : لا سيدتي ... ولكن ..

أم شويل : ولكن ماذا ؟؟

جبير : سيدتي إنه .. إنه .. أخشى عقابه .

أم شويل : تباً لك إليك ع ني .

ودقت أم شويل الباب . وعندما دخلت رأت شويلاً بادي الاضطراب موزع الخاطر يروح جيئة وذهاباً في غرفته عابس الوجه مقطب الجبين .

انتبه شويل على وقع خطوات أمه عندما اقتربت إليه والتفت نحو القادم .

شويل : من ... ؟ أمي العزيزة ؟ ويحاول أن يلملم نفسه ويرسم شبح ابتسامة على محياه محيياً والدته مرحباً بها .

أم شويل : أجل أمك يا شويل .. أمك العزيزة .. وقالتها بشكل تهكمي ساخر .

شويل : أوتشكين بذلك يا أمي ؟؟

أم شويل : إذن لماذا لم تمر علي كعادتك ؟؟

شويل مضطرب ولا يدري ما يجيبها .

أم شويل : وأيضاً تطلب من جبير أن لا يدع أحداً يدخل عليك .

شويل : نعم يا أمي ، ولكن لست أنت المقصودة .

أم شويل : إذن هناك أمر خطير شغلك عني .

شويل : لا ... ليس خطيراً إلى هذا الحد .
أم شويل : ما هو إذن ؟؟
شويل : أنت تعرفين علاقتي بكرامة ومدى تعلق كل واحد منا بالآخر .
أم شويل : كيف لا أعرف وأعرف أيضاً أن أخاها لا يكن لك الود .
شويل : هو ذاك .
أم شويل : أجل .. ثم ماذا ؟
شويل : تعرفين أن موعد السباق قد اقترب .
أم شويل : وأعرف هذا أيضاً ... ثم ماذا أسرع أرجوك .
شويل : وإن عمروا قد تحداني .
أم شويل : ثم ماذا وأعرف هذا أيضاً ، وماذا في ذاك ؟ فرسان ويتسابقون والسابق هو الفارس .
شويل : هذا هو بيت القصيد ، وتصوري أن كرامة تطلب مني أن أدعه يسبقني .
أم شويل : ماذا .. ؟؟ مستنكرة هذا القول .
ولماذا تدعه إن استطاع فليسبقك بكفاءته ومهارته .
شويل : إنها تخاف علي منه .

أم شويل : ألهذا أنت غاضب موزع الفكر مشتت الفؤاد ؟
شويل : أجل يا أمي ، كما وأنني سببت لكرامة الحزن والغم ، وقد أكون أغضبتها مني .
أم شويل : لا شك أن لها وجهة نظرها . إنك لا تدري بقلوب العذارى إذا أحببن : إنهن يظنن بالحبيب عن كل مكروه .
شويل : أرجو أن لا تكون قد غضبت مني .
وفي هذه اللحظة من الحديث سمعا جلبة وحواراً مرتفعاً بين الخادم جبير وبين صوت نسائي ، المرأة تصر على أن تقابل شويلاً في هذه الساعة من الليل وجبير يحاول منعها . تقدم شويل من الباب وفتحه وإذا هو وجهاً لوجه مع صفية وصيفة كرامة .
شويل : " تعتريه الدهشة للحظة من وجود صفية في مثل هذه الساعة من الليل " من؟؟..
صفية أهلاً أهلاً يا مرحباً .
صفية : أريد أن أحدثك حديثاً خاصاً لوحدنا وأعد قبل أن يُحس بي .
شويل : تفضلي بالدخول ..
وعندها تنسحب أم شويل من الغرفة لتتركهما وحيدين .
شويل : أمي إلى أين ؟ ابقي معنا .

أم شويل : لا يا بني ، سأذهب لبعض حاجتي ، لدي ما يشغلني .
ذهبت أم شويل وأغلق شويل الباب و بقيا وحيدين .
شويل : والآن حدثيني يا صفية ما الخبر ، وما الذي أتى بك في مثل هذه الساعة ؟ ... أرجو أن يكون خيراً .
صفية : إن لدي لك خبران ، وليس بخبر واحد .
شويل : تكلمي بربك وأسرعي .
صفية : إن كرامة ..
شويل : " وهنا يظهر بعض الانفعال على وجه شويل ويسأل : "إيه ما لها كرامة؟!".
صفية : صبراً يا رجل . إن كرامة تهديك سلامها وحبها .
شويل : " انفرجت أساريره وبدا عليه السرور و الفرح قائلاً : " يكفيني هذا الخبر إذن ".
صفية : مهلاً يا رجل . ألا تتركني أتم حديثي الذي جئت بشأنه .
شويل : حسناً ، أتمي حديثك .
صفية : إن كرامة تأسف على ما بدر منها وتقول لك افعل ما تريد بشأن السباق .
شويل : كنت واثقاً أنها سوف تراجع نفسها ولا ترضى لي إلا الكرامة والمجد ... وماذا بعد ؟
صفية : هناك مؤامرة ضدك .
شويل : ضدي ؟ ومن مدبرها ؟
صفية : ألا تعرف ؟؟
شويل : أتعنين عمرواً ؟
صفية : ليته هو فقط .
شويل : ومن معه إذن ؟
صفية : عدي بن عدي .
شويل : ذاك ابن المقتول .. وكيف عرفت بذلك ؟

صفية : بعد عودتنا من جانب الغدير وجدناه مع عمرو في القصر وقصت عليه كامل الحديث وما جرى فيه ، وكيف سمعت ما يدبران .
شويل : ابن الـ ... نعم أعرفه ، وأعرف أن شيمته الغدر و لا يستطيع أن يقابل الرجال وجهاً لوجه .
صفية : وليته لئيم فقط ، إنني أحدس أنه يرغب في كرامة وفراسة الأنثى لا تخيب في هذا المجال .
شويل : يرغب بكرامة ؟؟؟ عندها سوف تثكله أمه لا محالة .

صفية : ها قد أخبرتك وأنت تدبر أمرك .
شويل : شكراً ، لا بأس ، لا تراعي وأهدي سلامي وشوقي إلى كرامة و طمئنيها .
صفية : عمت مساءً .
شويل : عمت مساءً .

عادت صفية إلى القصر مع الخادم مبروك دون أن يشعر أو يفطن إلى غيابها أحد ... ووجدت كرامة لا تزال مستيقظة مسهرة الأجفان قلقة مضطربة ، وما أن لمحت صفية مقبلة نحوها حتى هبت من سريرها واستقبلتها بلهفة وعجلة مستفسرة سائلة .

كرامة : شغل بالي عليك ... أرجو أن لم يرك أحد .
صفية : اطمئني ... لا أحد إطلاقاً .
كرامة : وجدته وتحدثت معه .
صفية : أجل .
كرامة : ها كيف حاله ؟

صفية : مهلاً مهلاً دعيني أستريح أولاً ثم سف أحدثك بكل شيء .
كرامة : بالله عجلي لا أطيق صبراً .
صفية : لقد وجدته على أسوأ حال وتركته على خير حال . إذ ما أن سمع باسمك وبتحيتك له حتى نسي كل شيء وعاد جذلاً طروباً .
كرامة : إذن فهو ليس بغاضب مني الآن .
صفية : أبداً بل في غاية الرضا .
كرامة : وحدثته عن ذلك الشرير عدي ؟
صفية : طبعاً وقال لي لا تراعي وطمئني كرامة واتركا هذا الأمر لي .
كرامة : الآن أنام وأنا مطمئنة الخاطر مستريحة البال ، عمت مساءً .
صفية : عمت مساءً .

الفصل الرابع

أوى شويل إلى فراشه وهو مشغول البال مفكراً بما سمع من صفية ، وكم كان يتمنى أن لا يكون خصمه ومتحديه هو عمرو أخا أحب إنسانة لديه وراح في حديث مع نفسه : تباً لك يا عمرو ، ماذا صنعت لك ؟ إنني لا أكن لك إلا الود وإن كانت طفولتنا هي سبب ذلك الحقد فكم أنت قصير النظر يا عمرو إذ أنا نسيته . فإن الأطفال يتصارعون ويتخاصمون ، ولكنهم ينسون مثل هاتيك الأمور الصغيرة التي تحدث في الطفولة وإنني لا أتصور إنساناً يعشعش الحقد بين جنبيه كل هذه المدة الطويلة وخصوصاً إذا كان سبب ذاك الحدق هو تلك الحوادث الصغيرة التي تحدث في عهد الطفولة بين الأطفال . هذا مع العلم أنني أحاول قدر استطاعتي أن أتجنبه وأن لا أثيره ، لا خوفاً منه ، ولكن إكراماً لكرامة . ينسل

تحت غطائه قائلاً لنفسه : لكل حادث حديث، وإن غداً لناظره قريب ، ويروح في سبات عميق .

كان يسكن في أطراف الحيرة أحد صعاليك العرب المشهورين فهو من فتاك العرب ولصوصهم ويدعى ضمرة بن مرة الضمري . وكان مشهوراً بفروسيته وحبه لسفك الدماء ، والتف حوله جماعة من الصعاليك ا لأشرار مثله الذين لا صنعة لهم غلا النهب والغزو والقتل وقطع طرق البوادي على المسافرين .

في أثناء عودة عدي بن عدي كان يدور في خلده اسم ذلك الصعلوك الآنف الذكر، وأنه خير من يقوم بتنفيذ مهمة قتل شويل .

وفي صباح ذلك اليوم ركب عدي فرسه ويمم وجهه شطر ذلك الصعلوك الضمري ، وبعد ساعة من الزمان وصل إلى مكامنه . التقاه أحد الصعاليك وكان هذا يدعى عك .

عك : إلى أين يا هذا ؟

عدي : إنني أريد مقابلة ضمرة بن مرة .

عك : وما تريد منه ؟ ومن أنت أولاً ؟

عدي : أنا عدي بن عدي .

عك : آه ابن عدي المقتول .

عدي : أجل .

عك : انتظر هنا قليلاً .

والتفت عك إلى صعلوك آخر يقف غير بعيد عنه وناداه :

عك : يا مرار اذهب وأخبر ضمرة بأن هناك من يريده وهو عدي بن عدي المقتول "ذهب مرار " وواصل عك حديثه مع عدي : قال لي يا عدي ماذا تريد من الزعيم ؟

عدي : حديث خاص بيني وبينه .

عك : أتظن علي بالخبر يا هذا ؟

عدي : لا .. ولكن هل ترى مناسباً أن أخبرك قبل ضمرة ؟

وفي هذه الأثناء عاد مرار .

مرار : يقول ضمرة دعوه يأتي .

ذهب عدي إلى مقام ضمرة ويدخل عليه .

ضمرة : أهلاً عدي .. ما جاء بك إلا شر .

عدي : ليس شراً تماماً .

ضمرة : ماذا إذن ؟ عن لم يكن شراً.

عدي : ألا نكون لوحدنا ؟

ضمرة : إنك مخطئ يا صاح إن عك ومرار كنفسي تحدث ما بدا لك .

عدي : طبعاً أنت تعرف شويل .

ضمرة : طبعاً وهو فارس مجرب .
عدي : لا .. ليس إلى هذا الحد .
ضمرة : وماذا بشأنه ؟
عدي : سيكون لنا يوم سباق ومن يسبق من الفرسان سيغدو فارس القوم ونخشى يسبق عمروا ، ولذا نريد إن سبق عمروا ً.. " يتردد عدي في القول" .
ضمرة : أنا أقول ، إنكما تريدان قتله .
عدي : أجل ، هذا ما جئت من أجله ، وطبعاً كل شيء بثمن .

ضمرة : كما قلت إن شويلاً فارس مجرب وثمن رأسه مرتفع .
عدي : خذ هذا الآن خمسمائة ، ولك مثلها بعد الانتهاء .
ضمرة : حسناً اتفقنا .
عدي : ماذا أنت فاعل ؟
ضمرة : سوف أخبرك ماذا سنفعل ، وكيف سترسم الخطة .
وهكذا نتركهم وهم يعدون لقتل شويل .
في صباح ذلك اليوم أفاقت صفية مبكرة من نومها ، وبعد أن ارتدت ثيابها ذهبت مسرعة إلى كرامة .
صفية : عمت صباحاً يا كرامة .
كرامة : عمت صباحاً يا صفية .
صفية : ارجوا أن تكوني قد نمت نوماً هادئاً ليلة أمس .
كرامة : أجل لولا بعض الأحلام والهواجس المزعجة .
صفية : دعك من هذه الأوهام ، ولا تخشي شيئاً .
كرامة : إن هناك فكرة راودتني بعد ذهابك من عندي ليلة أمس .
صفية : وما هي ؟ هاتها .
كرامة : أطلب من أبي أن يتحدث لملك الحيرة إياس بن قبيصة بن حية الطائي .
صفية : بماذا يحدثه ؟ أبشأن يوم السباق ؟
كرامة : أجل سوف أحدثه بشأن يوم السباق .

صفية : ولكن إياك أن تذكري شيئاً عن خطط عمرو وعدي بشأن شويل ، وإلا سوف يحل بنا غضبهما وخصوصاً بي ، وأيضاً ليس لدينا دليل مادي نثبت به ادعاءنا .
كرامة : لا عليك : ها هو قادم سوف أعترض طريقه .
وكان والدها سيداً من سادات الحيرة وكبير من كبرائها ، وله قدره ومكانته ،

يسمعون رأيه ويطلبون مشورته في الملمات ومعضلات الأمور . إلا أنه كان شيخاً كبيراً وقد وهن جسمه ورق عظمه . واشتعل رأسه شيباً .
كرامة : عمت صباحاً يا أبي .
والدها : أهلاً بنيتي عمت صباحاً . أراك مبكرة بالاستيقاظ .
كرامة : أجل يا أبي أريد أن أحدثك .
والدها : قولي بنيتي : وهاتي ما عندك .
كرامة : إن السباق قد قرب ميعاده .
والدها : أجل أعرف هذا ، وما ذاك ؟
كرامة : إنني يا أبي أتوجس شراً من هذا السباق وأشعر كأن شيئاً خطيراً سيحدث به ، ويكون سبباً للشقاق والنزاع بين القبائل .
والدها : ما هذا يا ابنتي ؟ كُفينا شر ذلك اليوم . وأرجو من الله ألا يحدث إلا كل خير .
كرامة : أجل يا أبي أرجو من الله كل خير ، ولكن ما ضرك لو جمع إياس الناس و الفرسان حاثاً إياهم على التواد والتعاطف وترك الشر والفساد وعدم التسبب في إثارة النزاع والشقاق بين القبائل ؟
والدها : لله درك من ابنة عاقلة . إن هذا اليوم هو يوم جلوس إياس للناس وسأذهب إليه وأحدثه بعض حديثك .
كرامة : شكراً لك أبي . وبعد هذا اللقاء القصير مع والدها تنصرف عائدة إلى غرفتها وقد شعرت أن بعض ثقل صدرها قد خف وأزيح عن كاهلها حمل ثقيل .
بعد أن سطعت الشمس وتعالى النهار يمم (أبو كرامة) وجهه شطر القصر الأبيض الذي يقيم به إياس بن قبيصة وحوله كبراء أهل الحيرة وقادة عرب الضاحية أمثال حيري بن أكال وعبد الأسود العجلي ومالك بن قيس وجابر بن بجير وغيرهم نم القادة والكبراء . ولم يكن حاضراً هذا المجلس مرزبان الحيرة . إذ كانت تقتصر مثل هذه الاجتماعات على ملك الحيرة ووجوهها . وكان المزربان كأنه مستشار لإياس ، وأهل الحيرة لا يرجعون إليه إلا إذا حز بهم أمر وشأن خطير ، عندها يعودون إليه برأيهم ومشورتهم .
وعندما اقترب (أبو عمرو اللخمي) مع ولده عمرو ، أفسحوا له الطريق ووسعوا حتى يدخل على إياس ، وبعد أن دخل حيا الملك .
أبو عمرو : أبيت اللعن أيها الملك ، مع انحناءة صغيرة منه .
أجاب الملك التحية بمثلها وأشار إليه أني جلس في مكان قريب منه أخلي له . إلا أنه قبل أن يجلس قال : بأبي أنت وأمي أيها الملك أن لي كلمة صغيرة أردت أن أسرها لك.
إياس : تقدم وهات ما عندك يا أبا عمرو .
تقدم أبو عمرو إلى الملك وهمس له بما أراد أن يهمس ، استمع الملك إليه

باهتمام وإصغاء وظهرت على وجهه بسمة خفيفة دلالة على رضاه عما سمع من أبي عمرو وبعدها قال :
إياس : اجلس مكانك أبا عمرو وسنعمل بمشورتك . "نادى إياس على الحاجب".
دخل الحاجب قائلاً أمر مولاي الملك .
إياس : قال للمنادين أن يطوفوا بالمدينة ويعلنوا للناس أن اجتمعوا إلى الملك .
أمر مولاي . ويخرج الحاجب .
أما ما كان من أمر شويل في ذلك الصباح فإنه استيقظ مبكراً وارتدى ملابسه . ثم دعا خادمه جبير .
شويل : اسمع يا جبير تذهب الآن إلى عتبة بن النهاس العجلي وسعيد بن مرة وتدعوهما إلي لأمر هام .
ذهب جبير حيث أرسله سيده ، وسمعت أم شويل حديث ابنها مع خادمة فتعجبت من هذا الأمر ومن هذه الدعوة المستعجلة في مثل هذا الصباح الباكر ، فرأت أن ترى ولدها وتستوضحه الأمر .
أم شويل : عمت صباحاً يا ولدي .
شويل : عمت صباحاً يا أمي . أهلاً كيف أصبحت ؟
أم شويل : على خير ما يرام ، ولكن لما بعثت جبير في طلب صاحبيك هكذا باكراً ؟
شويل : لبعض أمور وخطط تتعلق بيوم السباق .
أم شويل : آه ... وما أمر صفية ليلة أمس ؟
شويل : آه .. صفية .." ويبدو عليه التردد قليلاً وقال" لا شيء كل ما هناك أنها أبلغتني أسف كرامة وحزنها على ما بدر منها .
أم شويل : كم هي لطيفة هذه العادة ولكم أحبها .
شويل : وأخبرتني أيضاً أن أفعل ما يحلو لي في السباق وأن أنسى طلبها بشأن أخيها عمرو.
أم شويل : يا للفتاة الطيبة ، هكذا فلتكن العذارى . على أي جواد ستخوض السباق غداً؟
شويل : طبعاً على الأدهم . آه ذكرتني يا أمي" ونادى شويل على أحد سواس الإسطبل لديه" زهير ... زهير ...
يحضر زهير مسرعاً وملبياً سيده : أمر سيدي .
شويل : أريدك أن تكرم جوادي الأدهم وتعده جيداً ليوم السباق وأريدك أن تلازمه ليل نهار لا تبرحه أبداً ، إذ أخاف أن يحصل له ما لا نحب .
زهير : أمرك سيدي . ويحيي وينصرف إلى حيث أمره سيده .
وكما تقول الروايات عن الأدهم هذا أنه كان زينة خيل زمانه ، لين العريكة ، شريف الطباع ، دقيق الأذنين طويلهما منتصبهما ، أما الناصية فشعرها معتدل

بالطول ، لا خفيف شعرها ، ولا مفرط في كثرته ، طويل الرأس واسع الجبهة أسيل الخد دقيقه ، قليل لحم الوجه ، واسع العينين ، صافي الحدقة ، رقيق الجفون ، حديد النظرة بعيدها .

بعيد ما بين المنخرين واسعهما ، أهرت الفم" فهو طول شق شفتيه من الجانبين " ، رقيق الجحفلتين (الشفتان) .

طويل العنق غليظ عند مركبه دقيق عند مذبحه ، مرتفع الكتفين والحارك والكاهل، قصير الظهر عريض الصهوة ، مرتفع القطاة ، قليل لحم المتنين ، أما كفله فمستدير أملس طويل السبيب" طويل شعر الذيل" قصير العسيب" عظم الذنب وجلده " وكما قالت الأعراب اختره طويل الذنب قصير الذنب ، إذا عدا رفع ذنبه ، عريض الصدر ، لطيف الركبة قريب ما بينهما ، صافي الحافرين واسعهما صلبهما ، رقيق أطراف سنابكه ، فكان بذلك رقيق أديمة ، صاف لونه ، لين شعره ، غزير شعر عرفه ، واسع الخطو ، خفيف العنان، لين الظهر خفيف وقع قوائمه على الأرض إذا مشى ، شديد وقعها إذا عدا ، أي باختصار كان كامل الأوصاف جامع صفات الخيل الأصايل المعتقات .

وبعد وقت ليس طويلاً حضر عتيبة وسعيد ودخلا قصر شويل ، استقبلهما شويل على الباب .

سعيد وعتيبة : عمت صباحاً يا شويل .

شويل : عمتما صباحاً يا فارسي عجل وشيبان .

سعيد : إلى أمر خطير دعوتنا في هذا الصباح ؟؟

شويل : أنتما صديقي بل أخوي ورأيت أن أشرككما في أمري وأستشيركما ببعض الأمور التي أرى أنها خطيرة بعض الشيء .

عتيبة : وما هي هذه الأمور الخطيرة ؟

شويل : إنني أرى أن قرن الشر والخلاف سوف تذر بقرنها بين بطون الحيرة وعرب الضاحية وعشائرها .

عتيبة : لقد شوقتنا لسماع ما دعوتنا إليه فرجاء أفصح وأبن .

شويل : إن يوم السباق كما تعلمون قد قرب موعده .

سعيد : أجل نعرف هذا ، وما شأن يوم السباق ؟

عتيبة : ستجتمع الفوارس من بين شيبان وعجل وبطون بكر وتغلب ابني وائل لتشترك فيه ، وماذا في ذاك من الشر ونذر الخلاف ؟

شويل : لا شيء إطلاقاً ، ولكن إذا اجتمع الحقد والحسد والغيرة فإنها كفيلة أن تفصم أقوى العقد والروابط .

سعيد : أرجوك يا شويل أن توجز وتتكلم بوضوح وتعلمنا بصراحة ماذا هناك .

عتيبة : دعنا من الألغاز وصرح بالحقائق .

شويل : تعرفون أن عمرواً قد تحداني في السباق وأنه وعدي يعدان لي مؤامرة إذا صدف وفزت على عمرو .

سعيد : يا للجبناء الأذلاء ، ولكن كيف ؟
شويل : لا أعرف والذي أعرفه فقط هو ما قلته لكم .
عتيبة : إنهما أجبن وأذل من أن ينالا منك شعرة واحدة ، وفينا عرق ينبض .
شويل : لأجل ذلك دعوتكما فأنتما الصديقان الحميمان .
سعيد : أنت أخ لنا وفارس مشهود له بالفروسية في هذه الديار ، ونحميك بالمهج والأرواح .
عتيبة : وإن أزاحوا الرماد عن النار وأبوا إلا استكباراً فلتكن حرباً شعواء لا تبقي ولا تذر وما يوم ذي قار ببعيد .
سعيد : أرى أن يبقى عتيبة قريباً من صيوان كرامة حيث ستسلم الفائز قصب السبق وتعقد له الراية .
عتيبة : لا بل سأشترك بالسباق .
سعيد : أرجوك عتيبة دعني أتم حديثي وأسمع كلامي .
شويل : دعه يا عتيبة دعه لنرى ما سيقول .
سعيد : أنا سوف أكون على فرسي يمامة بجانبك يا شويل ، وأكون لك كظلك أينما اتجهت، أما عتيبة فكما قلت يبقى مستعداً ومتيقظاً لكل طارئ .
عتيبة : آه وبعد ماذا ؟
سعيد : أحاول على اليمامة أن ألازم شويلاً يوم السباق ، وأحاول أن أكون الثاني إن استطعت ، وبذلك أستطيع أن أحميك من كل مكروه ، ولن يطالك شيء قبل أن يطالني .
شويل : شكراً لكما شكراً لكما .
عتيبة : حسناً اتفقنا .. أنصتا .. هل تسمعان كما أسمع ؟
شويل : أجل إنهم منادوا الملك .
سعيد : أنصتا : إنه يدعو الناس إلى مجلس الملك لأمر هام .
شويل : إذن هيا بنا إلى هناك ..

وهكذا يغادرون القصر إلى مجلس الملك ليعرفوا هذا الأمر الهام الذي يدعو الملك إليه .

في ذات الوقت كان عدي بن عدي قد عاد من مقابلة ضمرة الصعلوك وسمع منادي الملك وهو يدعو إلى الاجتماع . فيمم وجهه شطر مجلس الملك كي يحضر الاجتماع.

الفصل الخامس

أقبل الجميع إلى قصر الملك و أخذ كل واحد مجلسه وأقبل عدي أيضاً ووجد له مكاناً بالقرب من عمرو . ودار الهمس والكلام الخافت بين الحضور في انتظار

حضور الملك إياس بن قبيصة .

جلس عدي بالقرب من عمرو و أخذا يتهامسان ويسران في الحديث وبين الفينة والفينة يختلسان النظر إلى شويل ، وكذلك شويل يختلس النظر إليهما وتلتقي عيونهم في بعض المرات فيلاحظ شويل أن الحقد واللؤم يكمنان في عيني عدي وعمرو . كما وأن شويل يتبادل الحديث الهامس مع صديقيه سعيد وعتيبة . وفي هذه الأثناء كان عدد القوم قد تتام وأخذ كل فرد مجلسه فأقبل الملك ودخل من باب في القاعة بالقرب من مجلسه ، ولما رآه الناس قاموا له وقوفاً فحياهم الملك بإشارة من يده وأخذ مجلسه ، وبعد أن جلس أشار إلى القوم بالجلوس فجلسوا وساد الهدوء انتظاراً لما سيقوله الملك . بدأ الملك حديثه واقفاً قائلاً .

أيها الناس لقد عركت الحياة وعركتني الحياة ، وذقت حلوها ومرها ، وعرفت أن كل شيء سائر إلى زوال ، وأن كل شأن مهما علا أمره ، فهو إلى هبوط أكيد ، فاسمعوا مني وخذوا عني هذه النصيحة ، فالكريم من أكرم الناس والحليم من وسع الناس بصدره ، والزعيم من خدم الصغير الوضيع قبل الكبير الخطير ، والفارس من حمى الضعيف ودفع الضيم عن القبيلة يوم الطعان والضرب ، فكلكم فوارس شجعان ، وكلكم أبناء خؤولة وعمومة . فاسمعوا كلامي وليلامس شغاف قلوبكم وعقولكم ، إنكم مقبلون على يوم السباق العظيم ، وقد علمت أنه قد جرى فيه رهان وتحدي ، وما يجر الرهان والتحدي إلا الشر ، فاخلفوا القاعدة وإياكم والفساد والحرب والتحاسد واللجاجة ، وإني أحذركم ويلات الحرب وشؤمها ، فأنتم أهل وعشيرة في اجتماعكم قوة وتفرقكم ضعفاً ، وأنتم أحوج ما تكونون إلى الوحدة والتآخي . انبذوا من بين صفوفكم الثغرات والترات وأقبلوا على السباق بروح طيبة ونفس رضية لا تحمل بين حناياها ضغناً ولا كيداً وحقداً . كلكم فرسان ، و كلكم أهل لحماية الديار والعشيرة . الحمى حكاكم و الدار داركم والخسارة تلحق بكم وحدكم وتطمع بكم عدوكم ، وقد بلغكم ما بلغكم من ذاك القرشي الذي أصبح يتهدد العرب جميعاً لا بل ويطمع أن يطوي العرب والعجم جميعاً تحت جناحيه وأنتم ملوك العرب تهابكم الجزيرة من أقصاها إلى أدناها .

فعليكم بالتسامح وإفشاء المحبة بينكم والتجاوز عن هفوات بعضكم وزلاتهم يدم لكم عزكم ويبقى مجدكم بين العرب والعجم .

جلس الملك وسادت بين الحضور همسات وهمهمات مبدية إعجابها بقول الملك ورجاحة عقله ورهافة حسه و انشرح وجه أبي عمرو وفرح لقول إياس وفي أثناء ذلك قطع إياس بن قبيصة الهمسات والهمهمات بأن قال :

إياس : والآن ممن ستكون هيئة التحكيم ؟

أبو عمرو : أبيت اللعن أيها الملك ، نحن نترك الأمر لراجح عقلك وعظيم فطنتك فسم من شئت .

إياس : إذن ولدي قبيصة وعبد الأسود وابن أكال هيئة تحكيم . وهاني أخي سيكون على رأس الحرس الذي سيقومون بمهمة تفتيش الفرسان والمتسابقين ، ولا يسمح

للفارس أن يحمل أثناء السباق إلا جريدة من نخل أو سوطاً من جلد .
وهنا أعلن من سماهم الملك امتثالهم وصدعوا بأمره معلنين السمع والطاعة .
وبعده وقف الملك منصرفاً فانصرف الجميع وذهب كل ذي شأن إلى شأنه .
وعاد شويل مع صاحبيه وأثناء عودتهم راحوا يتحدثون بما رأوا وسمعوا .
شويل : ما رأيكما بما سمعتما ؟ أرى وكأن الملك يعرف بما يدبر السفلة المجرمون . و أرجو أن يتعظوا بما سمعوا ، ففيه خير لهم ولنا .
سعيد : على كل حال إن عدي لا يطمئن إليه ويجدر بنا أن نكون حذرين منه ، إذ لا يدع فرصة تلوح له أن تفلت .
عتيبة : صدقت يا سعيد ، ولكن لنكون البادئين بالشر ، فإن سمعا كلام الملك ونامت الفتنة في نفوسهم فخيراً فعلا ، وإن لا يزال الشر ينخر في نفسيهما فعلى نفسها جنت براقش .
شويل : ذاك هو الرأي ، والآن إلى اللقاء .
عاد شويل إلى القصر وهو يرجو الله أن يكون عمرو قد فكر واتعظ بما سمع ووعى النصيحة جيداً وطوى صفحة الشر والإفساد ، وبذلك تكون الفتنة قد نامت وتكون الطريق قد هانت بالوصول إلى كرامة حبيبة القلب وصنوا الروح ورفيقة اليقظة والمنام .
أما عمرو فإنه قد استأذن من أبيه بأنه يريد أن يبقى مع عدي بعض الوقت وما أن خليا مع بعض حتى بادر عدي عمروا الكلام قائلاً :
عدي : هيه عمرو ، هل لامس عقلك وشغاف قلبك كلام ابن قبيصة كما قال ؟
عمرو : ويلك يا عدي ، وهل فقدت عقلك ؟ ليس من السهل أن يتراجع عمرو عن أمر عزم عليه وعقد عليه نيته .
عدي : خفت ذلك والله ، لقد سكن فؤادي ، والآن لدي رأي أبديه .
عمرو : أي رأي هذا ؟؟ ألا تنتهي آراؤك يا رجل ؟
عدي : فقط محافظة على المظهر ، ألا تريد يا عمرو أن تحافظ على المظهر ؟" يقولها بطريقة توحي بالسخرية " .
عمرو : وأي مظهر هذا الذي تريد الحفاظ عليه ؟
عدي : مظهر القوة والوحدة بين أبناء الحيرة وعرب الضاحية .
عمرو : أفصح يا عدي ، أفصح فأنا في حيرة منك .
عدي : أن نتظاهر .. نتظاهر فقط ، أفهمت فقط ، وخصوصاً أنت بأن تكن لشويل الود وليس غير الود .
عمرو : لا أستطيع ، لا أستطيع ، إن كرهه قد جبل بدمي ، فهو دائم ما زال فيّ عرق ينبض .
عدي : أنا قلت أن ت تظاهر ، ولم أقل أن تحبه .
" يحاول عمرو مقاطعته" مواصلاً عدي كلامه ، وإن المجد الذي تروم

يحتاج إلى بعض المراوغة و المداورة ، أفهمت الآن ؟
عمرو : لا لم أفهم مما قلت شيئاً .
عدي : أرجوك عمرو لا تتغابى ، إن هذا ليس وقت التغابي ، تحاول أن تغتنم أول فرصة لتحادثه وتظهر له الود ما استطعت ، وكن معه لين المعشر حلو الكلام باسم الثغر.
عمرو : والله إنك تكلف نفسي ما لا تطيق ، ولكن سأحاول حتى أرى نهاية آرائك.
عدي : إذن ما رأيك أن تحاول المرور على شويل في قصره بعد القيلولة ؟
عمرو : كما تريد .
عدي : حسناً إذن اتفقنا ، لا تنسى بعد القيلولة .
وافترقا على أساس هذا التدبير الخبيث من عدي . إن عدياً هذا لابد أن يكون شيطاناً قد تشبه بصورة إنسان ؛ إذ هو محشو لؤماً ومكراً وخبثاً وشراً قد تراكمت الشرور والمفاسد على روحه حتى صدأ قلبه وتعفن تفكيره وأسن إناؤه ، فلا ينضح إلا شراً وخبثاً.
عاد شويل إلى قصره وقت الغداء فوجد أن والدته قد أعدت مائدة عامرة بأطايب الطعام ولذائذه ، وهي تنتظر مقدمه مع صاحبيه .
ابتدرته أمه بالترحيب به ودعته إلى الجلوس على المائدة .
أم شويل : أهلاً أهلاً بولدي العزيز . هيا إلى الطعام .
شويل : أهلاً بك يا أعظم أم ، "متصنعاً السرور والانشراح" .
أم شويل : ما لي لا أرى صاحبيك ، ألا ترى أنني أعددت لكم الطعام .
شويل : لقد ذهبا لبعض حاجتهما ولم يرغبا بالحضور .
أم شويل : ها ألا تحدثني ماذا كان سبب نداء الملك ؟
شويل : أراد الملك أن ينصحنا وحثنا على الإخاء والمحبة وعدم إثارة الفتن وخصوصاً عما قد يسببه يوم السباق .
أم شويل : أرجو أن تكون نصيحة الملك قد لاقت آذاناً ناصتة . ها وما سبب مجيء عتيبة وسعيد إليك في صباح هذا اليوم ؟
شويل : لا لسبب مهم ، فقط من أجل الاستعداد ليوم السباق والتشاور في بعض الأمور.
أم شويل : أرجو لك التوفيق يا ولدي .
شويل : بعد أن أكل يسيراً نهض عن المائدة شاكراً أمه على هذا الطعام الجيد . ولكن أمه لاحظت أنه لم يأكل كعادته .
شويل : لماذا نهضت إنك لم تأكل جيداً .
شويل : شكراً يا أمي لقد اكتفيت وسوف أذهب إلى غرفتي لأستريح قليلاً ." وقبل ذهابه إلى غرفته نادى على خادمه جبير ، ويأتي جبير مسرعاً ملبياً أمر سيده"
جبير : أمر سيدي .

شويل : قل إلى السائس أن يجهز لي فرسي نعامة لأنني أود القيام بنزهة خلوية بعد القيلولة.
جبير : أمر سيدي ." ويحاول أني نصرف ، ولكن شويل يستوقفه قائلاً " :
شويل : وقبل أن تذهب أخبره أيضاً أن يبقى قريباً من جوادي الأدهم ، ولا تفتر مراقبته له لحظة واحدة .
جبير : ينحني ويقول أمر مولاي .
بعد أن أمضى شويل فترة القيلولة في غرفته استيقظ ووجد فرسه نعامة مهيأة له . فركبها ويمم شطر الغدير وتجول بذهنه شتى الهواجس والأفكار وما يمكن أن يسببه يوم السباق من متاعب وشرور هم في غنى عنها ، ويحدث نفسه قائلاً ما ضرك يا عمرو ، لو جعلتني لك صديقاً ودوداً وأخاً محباً وكم كان يرجو ويتمنى أن يكون كلام الملك قد لاقى لديه أذناً صاغية وقلباً مفتوحاً إذن لها الأمر وسارت الأيام جميعاً هينة لينة وأصبح طريق كرامة ممهداً ميسراً .
وفي هذه الأثناء كانا عمرو وعدي على ظهر جواديهما في الطريق إلى قصر شويل كما تواعدا على ذلك . وعند باب القصر استقبلهما جبير مرحباً داعياً لهما بالترجل عن جواديهما والدخول .
عمرو : أخبر سيدك بقدومنا .
جبير : ولكن سيدي ليس بالقصر لقد خرج منذ قليل .
عدي : أين خرج إذن ؟
جبير : لقد خرج في نزهة برية قرب الغدير .
عدي : هيا بنا يا عمرو نلحق به إلى هناك .
وفعلاً فقد يمما شطره ، وبعد مدة ليست طويلة لحقا به على الغدير . ولما لمحهما شويل وتأكد أنهما قادمان نحوه توجس منهم خيفة وشراً ، وأخذ يتحسس مقبض سيفه وظهر التجهم على محياه ، وبعد أن أصبحا قريبين منه بادراه بالتحية .
عمرو : عمت مساءً يا بان العم" بلهجة حاول عمرو فيها كل جهده أن يضمنها بعض الود والصدق " .
شويل :" وقد ذهب بعض روعه وانزاحت بعض أفكاره أجابهما بحذر وترقب وسرعة كأنه يستفسر عن سبب مجيئهما" عمتما مساءً . قالها سريعة مقتضبة .
عدي : لماذا لا تبسم يا شويل ، ما لي أراك مقطب الجبين .
شويل :" وقد عاد إليه هدوءه وأيقن أنهما لا يريدان شراً" لا أبداً لا شيء ، كل ما هنالك أنني فوجئت بكما .
عمرو : لقد مررنا عليك في القصر فأخبرنا جبير أنك قد خرجت في نزهة برية .
شويل : ها أرجو أن يكون خيراً إذن .
عدي : طبعاً خير ، لقد سمعت حديث الملك كما سمعناه ، فأثر حديثه فينا غاية

التأثير وخصوصاً عمرو .
شويل : مقاطعاً ، شكراً لله إذن لذلك .
عدي : ولذا فإن عمرو رغب بأن يلاقيك ويتحدث إليك ويمحضك الود كله .
شويل : شكراً لك يا عمرو شكراً لكما .
عدي : كما وأنه سيان لديه من سيكون السابق يوم السباق .
عمرو : فعلاً فنحن أبناء عمومة وعشيرة ولا يجوز أن نجعل للشر طريقاً ليذر قرنه بيننا . ثم هذه خيل وجوهها عظم ولا تخجل تسبق بعضها بعض .
شويل : " وقد صدق حديثهما واستمع إليهما بقلب مفتوح إذ حبه لكرامة جعل قلبه لا يفهم إلا لغة الحب والود للتخاطب بين بني البشر " شكراً لكما شكراً لك يا عمرو على هذه الروح النبيلة ، كنت أعرف أن عمروا لا يحمل بين جنبيه إلا قلباً ودوداً عطوفاً .
عمرو : لا داعي للإطراء يا ابن العم وإلى اللقاء في يوم السباق .
شويل : إلى اللقاء .. رافقتكما السلامة .
ذهبا بعيداً وبقي شويل وحيداً ومع ابتعادهما دار بينهما الحديث الآتي :
عدي : أرأيت لقد خدع ابن اللكيعة وهذا مما يسهل أمرنا .
عمرو : فعلاً لقد خدع بمعسول قولك يا عدي .. أي شيطان أنت ؟؟
عدي : أنا شيطان لك أنت فقط يا عمرو : وخدماتي لا أقدمها إلا إلى الملوك والفوارس أمثالك الذين يحفظون المعروف ويدخرون الجميل .
وهكذا ابتعدا وعادا إلى تدبير مخططهما ، عاد شويل وهو يفكر بما سمع وبما قالا وهو حيران بين الشك و اليقين ، وأخيراً يزفر قائلاً إيه لعلهما هديا ... وأرجو ذلك .

الفصل السادس

كرامة وصفية تذهبان إلى مكانهما المفضل قرب الغدير وهما تنتظران شويل ، وأثناء انتظارهما بدأت كرامة الحديث .

كرامة : إن شويلاً اليوم في الحي وأظنه سوف لا يتأخر .

صفية : ولما التأخير ؟ أظنه على أحر من الجمر للقياك ، انظري ها هو قد أقل .

وبعد قليل وصل إلى مكانهما .

شويل : عمتما مساءً ، تردان عمت مساءً يا شويل .

وكعادتها تنسل صفية وتأخذ مكانها المعهود .

شويل : إن انتظاري إلى لحظة لقياك هذه أطول علي من السنين .

كرامة : وأنا كذلك ، لقد أمضيت النهار وأنا تحرق شوقاً للقياك وخصوصاً بعد الذي مني في لقائنا السابق .

شويل : "بتعجب" بدر منك ؟؟ قد نسيت كل شيء إلا عيونك الجميلة الآسرة ، وحديثك الطلي العذب .

كرامة : هيه ، ألا تزال عاتباً علي ؟

شويل : عاتب ؟؟ ألم أقل لك قد نسيت كل شيء إلا عيونك الآسرة ، بل ظننت أني قسوت عليك .

كرامة : "بحب وولع" لا أبداً أبداً يا حبيب ، والآن قل لي ماذا صنعت اليوم ؟

شويل : طبعاً علمت بما قاله الملك .

كرامة : طبعاً ، وأنا التي اقترحت على والدي ذلك .

شويل : لله درك من فتاة ناضجة عاقلة كاملة .

كرامة : شكراً ، لقد أخجلتني يا فارسي الحبيب .

شويل : آه يا كرامة ، لو تعلمين ما صنع نصحك في عمرو وعدي .

كرامة : "بلهفة تسأل" ماذا صنع قل لي .

شويل : لقد قابلاني بعد القيلولة وأظهرا لي الود والحب وأنه لا فرق عند عمرو من سيفوز بالسباق .

كرامة : أصدقتهما ... ؟ أرجو ذلك إنني أخاف ذلك الماكر عدي .

شويل : لا داعي للخوف يا حبيبتي ، إنك لو سمعتهما ورأيتهما لذهب كثير من شك قلبك .

كرامة : أرجو ذلك ، ولكن كن حذراً دائماً ، ولا تركن لهما كثيراً .

شويل : إن نصيحتك هذه مكانها بسويداء قلبي وحنايا صدري .

كرامة : أوه ، لقد تأخرنا ..

شويل : ماذا ... ؟ إنني لم أرتو من لحظاك ومن لقياك بعد ، إن بي لشوق عارم لك

، وفي أثناء حديثه يحاول أن يقترب أكثر فأكثر محاولاً لمس شعرها ...
فتروغ منه كرامة وهي تنادي صفية ... صفية هيا بنا ، لقد حان وقت رجوعنا .
شويل : هكذا سريعاً ...
ابتعدتا عنه وهما تلوحان له وتقولان إلى اللقاء .. إلى اللقاء .
شويل : إلى اللقاء يا حبيبة القلب وقرة العين ... إلى اللقاء في يوم السباق ..

يوم السباق

في يوم السباق الموعود أخذت الجماعات والأفراد من القبائل التي تحيط بالحيرة تتوارد من الصباح الباكر إلى الحيرة فملؤوا الطرقات والساحات التي تؤدي إلى ميدان السباق ، وكل قبيلة احتلت مكاناً معيناً حول الميدان والناس في هرج ومرج وصخب ولعب يتفاخرون بالأحساب والأنساب وشعراء القبائل ورجالهم يعددون مناقب قبائلهم ومفاخرها ويمدحون فرسانهم وشجعانهم وشيوخ قبائلهم . والكل في فرح وهو ينتظرون أن تحين ساعة السباق .

أما الفرسان الذين سيشتركون بالسباق انصرف كل واحد منهم إلى إصلاح شأنه وشأن فرسه وجواده استعداداً للحظة الحاسمة وكل واحد يرجو أن يكون السابق في هذا اليوم ويمني نفسه الأماني الكبار .

ميدان السباق كان يقع في الطرف الغبي من الحيرة ، وهو ميدان فسيح واسع أعد لمثل هذه الأيام الجامعة ، وله شهرة واسعة كسوق عكاظ وذي المجاز ، وكان الميدان يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وقد ازدانت جنباته وأطرافه بأنواع الزينة المختلفة والتي تليق بمثل هذا اليوم . أما على الجانب الأيمن من الميدان فقد أعدت منصة عالية للملك وبعض كبراء ووجهاء القوم ودون منصة الملك كانت هناك منصة أخرى تتسع لثلاثة أفراد أعدت لهيئة الحكام .

وفي نهاية المضمار أو ميدان السباق من الطرف الجنوبي أعدت الخيمة التي ستكون بها كرامة وصيفتها صفية وبعض نساء كبراء الحي حيث ستقوم كرامة بتسليم قصب السبق للفائز الذي تعلن فوزه هيئة التحكيم وتعقد له لواء الفروسية لذلك العام .

لقد قرب موعد وصول الملك والناس بدأ يخف هرجهم وصخبهم انتظارا لوصول الملك والكبراء والأعيان والفرسان كما وأن كرامة قد بدت من بعيد قادمة على هودجها فوق جملها الأبيض ويحيط بها فارسان شديدان من فرسان قومها غاطسين بالزرد والحديد ولا يبدو منما إلا الحدق من تحت مغفريهما .

كما وأن أحد عبيد أبيها يقود جملها وسار موكبها الميل إلى أن وصلت إلى الخيمة المعدة لها ، وكان يحيط بخيمتها بعض الخيام الأخرى لنساء كبراء القوم الأخريات ، أما خيمتها فقد امتازت عن بقية الخيام بكبرها وبديع صنعها وجميل منظرها ، وعندما وصل جملها إلى الخيمة أناخه العبد الموكل إليه قيادة وترجلت كرامة عن الجمل وتبعتها صفية وعيون الفرسان تلاحقها بعيون متلهفة آملة بأن تفوز بهذا الجمال البديع والقد الرشيق والعقل الراح ، وبعد أن أخذتا مكانيهما في الخيمة أخذتا تتجاذبان أطراف الحديث .

صفية : ما أجمل ها المنظر البديع الذي يأخذ بالألباب ، وهذه الجموع الغفيرة التي تصطفف على جنبات هذا الميدان الفسيح .

كرامة : حقاً إنه منظر يأخذ بالألباب ويثير بالنفس نوازع الغبطة والسرور .

صفية : انظري كيف أن كل قبيلة أخذت مكانها ، وفي مقدمتها يقف حامل رايتها ،

حقاً إنه شيء رائع وجميل .
كرامة : على الرغم ن أنه موقف يدعو إلى البهجة والحبور ، إلا أنني لا أعرف كيف أفسر هذا الانقباض والكآبة التي أستشعرها .
صفية : ولما يا عزيزتي كرامة ؟ اطردي هواجسك وكوني مستعدة للقيام بدورك المطلوب منك .
كرامة : يا صفية ، كأنك تتعامين .. أو أنسيت ما قد يجلبه لنا هذا السباق ؟؟
صفية : لا ... لا أتعامى ولم أنس ... ولكن ألم تقولي أنهما توادا وتصادقا ؟
كرامة : هذا صحيح ، ولكن لا أدري لم عقلي وقلبي لا يطمئنان لهذا المدعو عدي .

"وفي هذه الأثناء يقترب مرار الصعلوك ويرابط قريباً من نهاية ميدان السباق دون أن يلفت إليه الانتباه ، إذ كان الناس في هرج ومرج لا يدرون من حضر ومن غاب " .
صفية : ها هم الفرسان قد اعتلوا صهوات جيادهم وخيولهم ، كأنهم العقبان ، يا له من جمال فتان .
كرامة : أجل .. أجل ، ولكن أين شويل " تحدقان وتمعنان النظر في الفرسان " .
صفية : تشير بيدها إلى أحد الفرسان وتقول : ذاك هو .. انظري إنه فوق جواده الأدهم هذا الجواد الذي يفوق جماله كل الوصف ..
كرامة : تنظر إلى حيث أشارت لها صفية ، وبعد برهة تقول أجل إني رأيته ، ولكن من ذينيك الفارسين اللذين يحيطان به كإحاطة السوار بالمعصم ؟
صفية : لا أستطيع تبين ملامحهما "ثم تحدقان النظر أكثر" آه لقد عرفتهما ، أظن أنهما عتيبة العجلي وسعيد بن مرة الشيباني ..
كرامة : "تجيل نظرها وتحدق بهما وتقول : "أجل أجل ، إنما هما صديقا شويل الحميمين .. تواصل كرامة حديثها ولكن ما لي أرى عتيبة قد انفصل عنهما وها هو يخب على جواده متجهاً إلى نهاية الميدان ..
صفية : فعلاً أراه قد اتخذ مكانه في نهاية السباق ، ولا أظنه فعل ذلك إلا لأمر ، على كل ما لنا وله ، انظري ذاك عمرو قد أقبل على فرسه سعدى كأنه الهبوب .
كرامة : أجل إني أره وأرى معه ذلك الشرير عدي .

في أثناء ذلك أخذت الفوارس تتلاحق وكل يأخذ مكانه في أول المضمار من الناحية الشمالية ، وبعد برهة اصطفوا إلى جانب بعضهم البعض كأنهم أسنان المشط وخيولهم تتلاعب بأعنتها وتحرك أعناقها ناصبة أذانها تنخر وتشخر بأنوفها تضرب الأرض بحوافرها كأنها تستعجل ساعة السباق .

كما أسلفنا اصطفت الفرسان وأخذ كل مكانه ، فكان شويل على يمين عمرو ، أما على يسار عمرو فكان عدي ، وإلى يمين شويل اصطف سعيد . التفت شويل إلى عمرو محيياً إياه بمودة وصدق ، فرد عمرو التحية باقتضاب كأنه يخشى أن تفضحه الكلمات ، ولم يتبادلا بعداه بكلمة واحدة ، وهكذا بقي الفرسان ينتظرون

قدوم الملك الذي أشوك على الوصول إلى ميدان السباق .
كرامة : هذا موكب الملك قد أقبل يحف به الحرس والأعيان .
صفية : أجل ، وكما أرى أن أباك وابنه قبيصة يجلسان معه في غربته .
كانت عربة الملك آية في الجمال والفخامة مزركشة محلاة بالفضة والذهب مطعمة بالأحجار الكريمة يجرها ستة من الجياد المطهمة والحوذي يرتدي لباسه الرسمي الجميل الذي يرتدى بمثل هاتيك المناسبات . وبعد أن وصل الملك إلى حيث نصبت له المنصة العالية ترجل من العربة وتبعه ابنه قبيصة وأبو عمرو . وسار الملك إلى المنصة العالية حيث أخذ مكانه هناك وأخذ الكبراء والأعيان يجلسون في أماكنهم كل حسب درجته ومكانته . وبعد أن جلسوا ... طلب الملك أن تمثل أمامه هيئة المحكمين وهم ابنه قبيصة وعبد الأسود العجلي وابن آكال فطلب منهم الملك أن يقسموا بأن يشهدوا بالصدق والعدل قائلين " نقسم بالملك العظيم وبشرفنا العربي الصميم أن نشهد بالحق ونقول الصدق " وبعد ذلك أخذت الهيئة مكانها يتوسطها قبيصة بن إياس كرئيس للهيئة ، ثم نادى أخاه هانئ فجاء ومثل بين يديه .
إياس : أقمت بتفتيش الفرسان ونفذت أوامري بحذافيرها .
هانئ : أجل يا مولاي في غاية الدقة ، ولم أسمح للفارس أن يحمل إلا جريد من نخل أو سوطاً من جلد ...
إياس : بورك فيك وتعال اجلس إلى جانبي .
وهكذا كان على منصة الملك أخوه هنانئ على يمينه وأبو عمرو على شماله ، وكما أسلفنا أن أبا عمرو كان رجلاً كهلاً وذو رأي ومشورة ، وكان الملك يقدره ويحبه ويجله وإذ كان دائماً يجلسه معه في مجلسه مكرماً محترماً .
وبعد أن هدأت الضجة ورتبت جميع الأمور وأخذ كل فرد مكانه ، أصدر الملك أمره ببدء السباق ، وفي الحال انطلقت الخيول كأنها السهام أو قطيع الضباء ، وقد أنفرها أسد ثائر .
صفية : الآن يبدأ الطرد ، وقد بدأ الانشراح والسرور على محياها .. ملتفتة إلى كرامة .. تراها متجهمة .. ما لي أراك هكذا ؟ ألا تسرين لهذا المنظر الخلاب !
كرامة : أجل إنه منظر جميل ، ولكني والله في حيرة من أمري ، لا أدري من أود أن يسبق ، فهذا أخي وهذا حبيبي .
صفية : لا يهمني الآن من يسبق ، كل ما يهمني الآن أن أمتع ناظري بهذا المنظر الرائع .
كرامة : إني أغبطك يا صفية ليتني مثلك خالية البال فارغة القلب .
صفية : وما يمنعك كوني مثلي .
كرامة : وقد نفد صبرها ، أو ه صفية دعك الآن من المزاح ..
صفية : إني لا أمزح .

كرامة : انظري لقد بدأت تتمايز الخيول وتبتعد عن بعضها البعض .. انظري .. ثلاثة فقط أصبحوا بالمقدمة ..
صفية : أجل أجل إنهم ثلاثة ، عمرو وشيل وسعيد .
كرامة : مسكين سعيد ، لقد بدأت فرسه تتأخر .

وكان الميدان يضج بالصراخ الهتاف كل يشجع فارسه وكل قبيلة تنخا فارسها طالبة التقدم والسبق .
صفية : انظري لله درهما من فارسين ، لقد أصبح الركاب على الركاب .
كرامة : يا ويلي ، والله لا أدري لمن أطلب الفوز .
صفية : انظري لقد تقدم عمرو وشويل .
كرامة : أجل ، وقد تأخرت يمامة بفارسها سعيد .
صفية : إني أرى عمرواً قد بدأ يتقدم قليلاً على شويل ، تصيح صفية لا شعورياً مشجعة عمرو .
كرامة : "تلكزها وكأنها تطلب منها أن تكف عن هذا الصراخ" فعلاً إن سعدى تتقدم وها هو رأسها بدأ ينوف عن رأس الأدهم ، وهنا وبشكل لا شعوري تصرخ كرامة بصوت مخنوق ومتحشرج كأنه الهمس شويل اهمز جوادك لا يجب أن تدعه يسبقك ، ورأت صفية تنظر إليها فعادت إلى روعها وشعرت كأنها ارتكبت إثماً ، فانكمشت في مكانها وانصرفت تلملم أطراف ثوبها .
صفية : انظري يا كرامة ، ها قد أصبح أكثر من نصف سُعدى متقدماً عل الأدهم .
كرامة : دعيني بربك ، لا أريد أن أرى إن رأسي يطن كأنه سينفجر ، رحماك يا رب ، ما هذا الموقف الصعب الذي أقفه .. تعساً لك من سباق تعساً لك من سباق ، ما كان أغنانا عنك وعن متاعبك .
في هذه الأثناء يضج الميدان بصياح وصراخ قبائل بني عجل وشيبان ، أين أنت يا شويل ن ما هذا الذي نرى ؟ أين أدهمك يا شويل ؟
صفية : أظن أن سعدى سوف تسبق ، انظري لقد تأخر شويل عن عمرو بمقدار باع أو ذراع .
كرامة : تظهر سحابة خفيفة من حزن على محياها وتقول "وكأنها خجلى" أين أنت يا شويل ، هذا يومك وتبرز قليلاً إلى الأمام .
وفي هذه الأثناء لمح شويل كرامة قد برزت إلى الأمام فغلى الدم في عروقه وشعر وكأن كرامة تستنهض همته وتستحثه ، وعندها فقط همز شويل جواده وهمس عند أذنه كأنه يخاطبه ويستحثه ، وعندها أخذ الأدهم يعدو كأنه الريح العاصفة .
صفية : انظري يا كرامة أترين كما أرى ؟ إنني أرى الأدهم وكأن الجن قد ركبته ، بل كأن أجنحة من ريح قد ركبت له ها هو بدأ .. انظري إن الركاب أصبح على الركاب تصيح صفية .. يا له من جواد كريم أصيل ، بدأ يتقدم على سعدى وها هي

سعدى بدأت تتأخر شيئاً فشيئاً .
كرامة : تصيح تقدمي يا سعدى وكأنها ترجو شويلاً لا يا شويل لا يا أدهم أرجوكما لا أريد أن يسبق أحدكما الآخر ، يا رب إن صراعاً رهيباً يضطرم في كياني ويكاد أن يعصف بي ...
صفية : هيهات أن يسمعاك ، لقد تقدم شويل وأصبح قريباً من نهاية الميدان ، وها هو عمرو يتأخر بأكثر من عشرين ذراعاً .
كرامة : يا ويله هذا الجاد ، هذه عادته يتباطأ أول السباق ثم يجود في النهاية ويصبح يسابق الريح .
صفية : أجل يا حبيبتي قري عيناً وابتهجي وافرحي ، لقد فاز حبيب القلب .
كرامة : أجل إنني أحاول الفرح ، ها قد وصل شويل ، وهذا أخي عمرو بعده .
وفي هذه اللحظة ضج الميدان بالصياح والتهليل حتى تجاوبت جنبات الميدان الكبير بالهدير الذي يشق عنان السماء ويصم الآذان .
كرامة : رحماك ربي اللهم لا ترنا شراً ولا تفجع حبنا بالانقسام والفرقة .
وبعد فترة بدأ الهتاف والضجيج يخف تدريجياً حتى تلاشت آخر الأصداء في الفضاء وخيم الهدوء على الجميع وكأن على رؤوس الناس الطير وكلهم منتظر ومتلهف لمعرفة ما سيجري في اللحظات القادمة ، وما يحمله بطن الغيب من مفاجآت قد تحدث وحرب داحس والغبراء ليست بعيدة عن الأذهان .
صفية : ترى ما حال أخيك الآن ؟ أظن أن النار الآن تأكل قلبه وتتقد في جوفه .
كرامة : ضارعة ومشفقة : رحماك اللهم أعنه وهون عليه الأمر الله هبه الحب والكرم في هذا الموقف العصيب .
صفية : انظري ها قد تقدم رئيس هيئة المحكمين بالقرار إلى الملك استعدي يا كرامة لتسليم فارسك وفارس حيناً قصب السبق الذي فاز فيه .
كرامة : لا أدري ما بي يا صفية ، لقد بدأت أسناني تصطك وركبتاي ترتجفان ، وقلبي كأنه يريد أن يقفز من صدري ، أعني يا رب " ترددها أكثر من مرة " .
يصيح أحد الحرس بصوت عال أن الفائز في هذا اليوم المشهود هو شويل وجواده الأدهم" يكررها ثلاث مرات" .
وهنا يضج الميدان بالصياح والهتاف ، وبعد أن عاد الهدوء مرة أخرى بعد الهرج والمرج الذي ساد يصيح الحارس مرة أخرى ليتقدم شويل إلى أمام الملك وهنا يبرز شويل من بين الصفوف ويتقدم مهرولاً على جواده وخلفه صديقيه سعيد وعتيبة ، وعندما يصبح بمواجهة الملك يقف مستعداً منتصباً على جواده ، وهنا يشير الملك إلى حامل الراية، وهكذا تقدم حامل الراية حيث شويل فيسلمها له فيأخذها شويل بإعزاز وتبجيل ويتراجع قليلاً إلى الخلف ثم يعود إلى منتصف الميدان يحيط به صديقيه .
صفية : انظري ها هو شويل قد أصبح في منتصف الميدان فاستعدي لمقابلته ، ها هم بدؤوا يتقدمون نحونا خبباً استعدي يا كرامة .
تقف كرامة وتتقدم إلى الأمام مقدار ثلاث خطى حتى تبرز أمام صيوانها ويراها الجميع . يقترب الآن شويل ومعه الفارسان يحيطان به إحاطة السواء

بالمعصم ، وعندما يقترب كثيراً من صيوان كرامة وهي بارزة أمامه يتأخر عن الفارسان مقداراً كافياً ويواصل هو تقدمه على صهوة جواده حتى يصبح على بعد بضع خطوات من كرامة يمد بالراية إلى كرامة وينظر إليها نظرة والهة عاشقة وتلتقي نظراتهما . تضطرب كرامة قليلاً ثم تغض من طرفها وهي تحاول أن تعقد الراية لشويل بيدين راجفتين مرتعشتين ثم ترفع قصب السبق عالياً بيديها ، وهنا تضج الجماهير المحتشدة بالهتاف والصراخ ، وفي وسط هذا الجو المؤثر والمشهد العظيم يترجل شويل عن جواده ويتقدم إلى حيث تقف كرامة فينحني لها قليلاً ثم تسلمه قصب السبق الذي هو أمنية كل فارس مغوار وشجاع فتاك ، ثم ينحني انحناءة خفيفة منصرفاً .

في هذه الأثناء لو تصفحنا وجوه القوم لرأينا وجهاً كادراً متجهاً يكاد ينفجر من شدة الغيظ والحقد ويهمس لنفسه قائلاً لا أبقاني الله إن أبقيت عليك يا ابن اللئيمة ، لا أبقاني الله إنه عمرو .

بعد هذا يعود شويل ويمتطي جواده بخفة ورشاقة كأنه الفهد ويعود مع الفارسين كما جاؤوا إلى حيث يجلس الملك على منصة الشرف ، وعندما يصبح قبالة الملك ينحنين انحناءة شديدة محيياً ، ثم يركع على ركبة واحدة فينهض الملك من مجلسه ويتقدم نحو شويل خطوة واحدة ، وعندها يعطي كبير الحراس للملك سيفاً جميلاً عظيماً مرصعاً بالحلي والجواهر ، فيقلد الملك شويلاً ذاك السيف قائلاً :

يا شويل ، لقد قلدتك هذا السيف الذي يرمز إلى القوة والشرف وعقدنا لك الراية، فكن عند حسن الظن بك ، فلا تدنسهما ولا تذلهما ، وحافظ على شرفي وشرف الأهل والعشيرة .

شويل : بعد أن تقلد السيف ينهض واقفاً كأنه الرمح منتصباً وأجاب الملك قائلاً : هذا شرف رفيع أوليتني إياه يا مولاي ، وسأحافظ على العهد والشرف وسأحمي الراية التي احمل بدمي وروحي .

وبعدها يستعد الملك للانصراف فيأتي له الحرس بعربته فيركبها منصرفاً .

الفصل السابع

محاولة الاغتيال

بعد انصراف الملك اندفعت الجماهير والفوارس تحيي وتهنئ شويلاً ، وكان في مقدمة المهنئين سعيد بن مرة وعتيبة بن النهاس وبعض الفوارس المعدودين ، وأخذت الجموع يخف زحامها تدريجياً ، وبدأت تتلاشى في الطرقات والأزقة المؤدية إلى قلب الحيرة ، وبدأ الميدان يخلو إلا من بقايا المحتشدين والمتسكعين ، وفي هذه الأثناء كانت الشمس قد أوشكت على المغيب وراء الأفق ، وأصبحت قرصاً محمراً خافت الإشعاع ملقية على الأرض ذلك اللون المائل إلى الحمرة مشكلة ذلك المنظر الجميل الخلاب في فيافي الصحراء الرائعة ، وأصبحت حبات الرمل كأنها حبات اللجين المذاب ، فبعث هذا المنظر الرائق الصافي في نفس شويل الطرب والشعور بالسعادة والجذل فالتفت إلى صاحبيه قائلاً وكأن السعادة

بعينها تمشي على الأرض .
شويل : حمداً لك اللهم ، لقد مضى هذا اليوم بخير ما تمشي به الأيام السعيدة ، ولم يحدث ما يعكر صفوه ، والآن ما رأيكما بالذهاب إلى الحانة لاحتساء كأس أو كأسين من بنت الكرمة .
عتيبة : ليس عندي مانع أبداً .
سعيد : أما أنا فأشعر ببعض التوعك وأريد أن آوي إلى فراشي مبكراً غذ سأرحل في صباح الغد الباكر .
شويل : إلى أين يا ترى ؟
سعيد : إلى ديار المثنى بن حارثة الشيباني .
عتيبة : فعلاً قبل أن نأتي إليك حدثني عن عزمه ذلك .
شويل : وكم ستمكث هناك ؟
سعيد : لا أعرف ، ولكن ليس أقل من شهر .
شويل وعتيبة : بيمن الله ورعايته رافقتك السلامة .
سعيد : أتودعكما لله .

ثم ذهب شويل وعتيبة إلى الحانة ، وما أن يطل شويل من باب الحانة وخلفه عتيبة حتى يصبح بعض الحضور مرحباً بالفارس العظيم شويل : أهلاً بك يا شويل تفضل بالدخول نحتفل بمناسبة فوزك العظيم ، وفي هذه الأثناء ترن في أرجاء الحانة ضحكة مستهجنة مستهترة ويصيح صاحبها وهو بين الصحو والسكر قائلاً باستهتار .. ها ها .. فارس ... ؟ مشيراً إلى شويل قائلاً : شويل فارس ؟؟ مواصلاً ضحكه وصخبه ثم يحاول أن يواصل الشرب من قدح بيده .
شويل : محتداً كأنه لا يعجبك يا لكيع محاولاً التقدم نحوه .
عتيبة : دعك منه يا شويل ، ما هو إلا مخمور مأفون ، دعك منه .
الرجل : لا .. لا يعجبني يا ابن اللكيعة وما أنت إلا جبان رعديد .
شويل : يمتشق سيفه بخفة وقوة قائلاً : إذن سوف تثكلك أمك .

وكذلك يقفز المخمور ممتشقاً سيفه وفي هذه اللحظة التي يحتدم بها النقاش ويكاد الموقف أن يتعقد يطل من باب الحانة عمرو وعدي .
عمرو : متقدماً بخطى واسعة ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ صفوان وفارسنا شويل ! لا يا شويل .. لا يا صفوان ، ما أنتما إلا أبناء عمومة وعشيرة ، ويأخذ موقفه بينهما مطيباً خاطرهما .

وهكذا ينتهي ذلك الجو المتكهرب الذي كاد يطغى على صفاء ذلك اليوم واستغرب بعض الحضور هذا الموقف النبيل من عمرو ، ولكنهم لم يكونوا يدرون ما يحاك بالظلام ، وأراد عمرو أن يظهر بمظهر الود والصداقة من شويل .

يذهب شويل وعتيبة إلى ركن من أركان الحانة وشويل يفكر بموقف عمرو النبيل وهو لا يكاد يعرف كنهه وقصده ، وكذلك يتخذ عمرو وعدي مكاناً آخر من

الحانة بالقرب منهما وقبالتهما كان يجلس الصعلوكان عك ومرار ، وبعد قرع الكؤوس وشرب الأقداح والنادل يوزع على الحضور ما يطلبون من الخمرة والقينة تتلوى بين الجلوس تغني لحناً جميلاً يناسب الموقف والجميع راتعون في لهوهم وصخبهم يغمز عدي صعلوكين بطرف عينه فيفهما مراده وطلبه فينصرفان تباعاً ، وفي هذه الأثناء كان شويل وصاحبه قد نالا بعض الخمرة .

شويل : عتيبة هيا بنا ننصرف .

عتيبة : هكذا مبكرين لم نكد نجلس بعد .

شويل : متوتراً أرجوك إنني أكاد أختنق ، ولا أستطيع أن أطيل مكثي هنا ، كذلك لابد وأن والدتي بانتظاري الآن .

عتيبة : حسناً كما تريد هيا بنا ، ينهضان وينصرفان .

عمرو وعدي ينظران إليهما بنظرة ذات معنى .

عمرو : مخاطباً شويل : لم تجلسا بعد ولا يزال الوقت مبكراً يا ابن العم .

شويل : شكراً لك يا عمرو ، أريد أن أرتاح .

عدي هامساً : إلى جهنم يا ابن اللكيعة ، اسع إلى حتفك بظلفك .

وبعد أن يتواريا من باب الحانة يقهقه عمرو منشرحاً وطالباً قدحاً آخر من القينة ، تأتي القينة تهتز وتتمايل وتكشف من جسدها أكثر مما تستر وتقول له اشرب مداماً صافياً يا فارس الفرسان وسيد الشجعان ، وتنحني لتسكب له مداماً رائقاً كعين الديك ، فيحاول أن يضمها ويقبلها فتفتل من بين يديه بغنج ودلال وتسكب لعدي وتنصرف لتلبي طلبات رواد الحانة .

أما الشقيان فقد خرجا من الحانة وسبقا شويلاً وكمناله على الطريق المؤدي إلى قصره ، وكان قصره يبعد قليلاً عن الحيرة على مسافة فرسخ أو أكثر قليلاً في الجهة الشمالية الغربية من الحيرة تحيط به حدائق غناء ملتف أيكها باسقة أشجارها ، وكانت بين الأشجار بعض أشجار النخيل تتحدى غيرها من الشجر بالعلو والارتفاع وهي تتمايل مع النسيم العليل على أطراف الصحراء كأنها جنيات ترقص فرحة جذلى على مزمار سحرية تنبعث من خرير الجداول وحفيف الأشجار، وكان القمر هلالاً قد غاب مبكراً في بحر الأفق والليل قد أرخى سدوله ونسج من خيوط ظلمته عباءة حالكة السواد تلف الدنيا بعتمتها إلا من شعاع ضئيل ينبعث من بعض النجمات في الأفق الغربي وكأنها خجلى من الدنيا لأنها لم تستطع أن تبدد سوادها وحلكة خيوطها ، فأحب الشعاع أن يتوارى خلف الأفق الغربي وكأنه يعتذر عن هذا التقصير البادي منه .

في هذا الظلام الدامس وبين أغصان تلك الأشجار الملتفة والتي يمر من تحتها الطريق كمن الشقيان ينتظران .

بعد خروج شويل وعتيبة من الحانة رغب عتيبة أن ينصرف إلى أهله وداره ولكن شويلاً أبى عليه ذلك وأصر أن يذهب معه إلى القصر حيث يحتفلان بهذه المناسبة بما يليق بها وخصوصاً بعد أن عكر عليهما بعض صفوها ذلك المعتوه صفوان وبعد إلحاح من شويل وافق عتيبة على الذهاب معه ، وهكذا يمما شطر القصر يمنيان النفس بسهرة ممتعة وقضاء وقت جميل ، وعند اقترابهما من القصر

وهما على جواديهما سمع الشقيان وقع حوافر الخيل فتحفزا وتهيئا للانقضاض على شويل لحظة اقترابه من مكمنهما وعندما قربا تماماً من المكمن قفز مرار على شويل وعك على عتيبة فطرحاهما أرضاً عن الجوادين وبدأت معركة حامية الوطيس بين الشقيين وشويل وصديقه إذ لا نجاة لأحدهما إلا بقتل الآخر وبعد كر وفر وطعن وجلاد استطاع مرار أن يصيب شويلاً بجرح خفيف بعضده الأيسر ، وهنا عاجله شويل بضربة ساحقة ماحقة كأنها سيف القدر فوجئه فوقع وهو يصرخ صيحة ألم ارتجت لها جنبات المكان ، وعندها أيقن عك بالهلاك فولى الدبر فتبعاه ، ولكن الخوف أمده بقوة هائلة من الركض كأنه الجواد وساعدته الظلمة على النجـــاة

وعلى أثر الصرخة المدوية أشرعت أبواب قصر شويل وتدافع منها الخدم والغلمان بأيديهم الشموع يتراكضون خارجين من القصر خوفاً على سيدهم شويل ، أما والدته فقد خرجت إلى الشرفة وهي ترتجف خوفاً وفزعاً على ابنها الحبيب . وصل الخدم والموالي في طليعتهم جبير وزهير ، ولما رأوا الدم ينزف من عضد سيدهم ارتجفوا خوفاً وبدؤوا يتساءلون عن صحته وحاله ، فطمئنهم وسكن روعهم وكأنه مجرد جرح بسيط وهنا قال:

جبير : شلت يمينه الجبان شلت يمينه .

شويل : لا تراعوا انظروا ذاك هو الشرير الجبان مضرجاً بدمائه .

عتيبة : والآن اقتربوا بالشموع لعلنا نعرف من هو .. من هذا .. لا أعرفه ..

شويل : ولا أنا كذلك أعرفه .

جبير : لابد أنه غريب عن هذه الديار .

شويل : أجل لابد أنه أحد الصعاليك .

عتيبة : ولكن لا تعرفه ، إذن ولابد أن تكون مؤامرة مدبرة .

شويل : مؤامرة ؟؟ ومن عساه قد نسج خيوطها ودبر خطاها ؟

عتيبة : ومن يكون غيرهما؟؟

شويل : من تقصد يا رجل ؟

عتيبة: وهل هناك غيرهما عيد عمرو .

شويل : أرجوك عتيبة ، لا نريد أن نتهم أحداً وطالما أنهما لم يتعرضا لي بشكل مباشر . قد يكونان بريئين وعلى كل حال لندع الفتنة نائمة الآن .

عتيبة : ليكن وحمداً لله على سلامتك .

ويعود الجميع إلى القصر .

أم شويل : لما وصل ولدها إلى حيث هي استقبلته واحتضنته بلهفة وخوف قائلة أهلاً ولدي حمداً لله على سلامتك ، شلت يمين الغادرين .

شويل : مطمئناً والدته : اطمئني أمي ، إني بخير ، ثم يدور حول نفسه ويقول لها انظري كم أنا معافى وبخير .

أم شويل : شلت يمينه ذاك الذي أسال قطرات دمك العزيز .
شويل : اهدئي يا أمي ، وهل هذه الدماء التي تجري في عروقنا ونجدت إلا تجري غزيرة دفاعاً عن الشرف والذود عن الحياض والكرامة ؟
وفي هذه الأثناء ضمدوا جرحه .
عتيبة : أرى أن أنصرف الآن ، ليس لنا نصيب بليلة جميلة كما أرى .
شويل : وهل جننت ! ستبقى وتنام هنا .
عتيبة : أرجوك شويل ، دعني أرحل .
شويل : يا أخي ، قلت تبقى يعني تبقى .
وهنا ترى أم شويل أنه يجب عليها أن تتدخل في النقاش .
أم شويل : أرجوك يا بني أن تبقى معنا ، ثم لا يصح لك أن ترحل وخصوصاً بعد الذي حدث .
عتيبة : سمعاً وطاعة .
وبعد سهرة حمراء في حانة المدينة ، وبعد أن أفرغ عمرو وعدي في جوفيهما عشرات الكؤوس من الراح عادا يترنحان من السكر ويهذيان ويقهقهان قهقهة المخمورا

استرعى انتباه كرامة وصفية إذ كانت تستعدان للنوم ، وعند خروجهما تستوضحان جلية الأمر ولم يشعر بوجودهما المخموران ، وإذا هما تسمعان هذا الحوار المثير المرعب .
عدي : "بصوت مرتجف مخمور " لقد انتهى ابن أم شويل وإلى الأبد " .
" وهنا ندت عن كرامة صرخة مكتومة" قائلة يا ويلي ، فأسكتتها صفية وأشارت إليها أن" صه لنرى ونسمع بقية الحديث .
عمرو : وبصوت مخمور أيضاً" لا شك أنك شيطان بارع يا عدي ، ويواصل ضحكه" ثم يسكت فجأة كأنه تذكر شيئاً مهماً ، وكأن الخمرة قد زايلته" ولكن أمتأكد أنت من أننا قد خلصنا منه واسترحنا ؟
عدي : ما هذا السؤال يا عمرو ؟ وكأنك تشك بي وبمقدرتي ؟ وهل عهدت بي غير الدقة بالعمل ؟؟ وخصوصاً في مثل هذه الأمور ، فأنا أجيدها جيداً ، ثم لا تنسى يا صاح أن رفاق ضمرة لا تفلت من أيديهم الأبالسة ، فكيف بذلك الولد المسكين الطيب ؟؟
" وهنا لم تستطع كرامة أن تسيطر على عواطفها أكثر وتصرخ بصوت جريح كصوت لبؤة وقد اعتدى على أشباها ووضعت به كل الحقد والكراهية " .
كرامة : قتلته يا شيطان ، بل يا أخبث من الشيطان نفسه ، تعساً لك ولأمك تعساً لك من رفيق سوء . " وتنقض عليه محاولة الإمساك بتلابيبه " .
ولما سمعا ورأيا كرامة وصفية فوجئا أشد مفاجأة واستولت عليهم الدهشة

وسادهما الذعر وبديا كأنهما لم يذوقا قطرة من خمرة ، وكانا في كامل وعيهما ، ولما رأيا كرامة وقد هجمت نحو عدي فاقا من دهشتهما تماماً ، وقفز عدي خلف عمرو .

عمرو : حاول أن يسيطر على كرامة أما زلت متيقظة أنت وصفية ؟؟ وبصوت أكثر حدة وارتفاعاً أتتجسسين علي ؟!

كرامة : وقف كرامة بعيدة عن عمرو ورمته بنظرة كلها ألم وذهول وأفرغت بكلامها كل ألمها وأسفها وخيبة أملها بأخيها قائلة : " كم أنا متألمة وآسفة أن تكون أخاً لي ، بل ذلك الأخ الحبيب الذي رباني وإياه والدي على كرم الطباع وحلو الشمايل فينتهي إلى هذه النهاية المؤلمة إلى نهاية متآمرة وضيع غرر به هذا الشيطان وأودى به إلى مهاوي الفساد ومراتع الشر والسفالة .

عمرو : بصوت مرتفع ومتبرم كأنما نفد صبره صائحاً أوه كفى كرامة كفاك تهجماً وثرثرة لا معنى لها ، عودي إلى غرفتك ولا تتدخلي بشؤون الرجال واهتمي بما تهتم به النساء والفتيات من أمثالك .

كرامة : طبعاً ، وماذا عساك تقول غير هذا ؟ ثم لا تزيد أن تسمع وتفيق من سكرتك ، وكيف تسمع وهذا الشرير قد قضى على الخير والحب في حنايا قلبك وجعل دونه سداً منيعاً من الشرور والآثام ، أجل لقد انطفأ مصباح الخير في قلبك وحل مكانه الظلام وانتشرت بين خرائبه المهجورة خفافيش الشر تبحث عن فريسة مسكينة في هذا الخراب المهجور .

في هذه الأثناء كان عمرو قد أشاح بوجهه عن أخته وأدار لها ظهره وعضلات وجهه تتقلص وتنقبض وقبضته مضمومة تكاد تتمزق من شدة الانفعالات المتضاربة في نفسه ...

عدي : ما هذا يا كرامة .. إني لست شريراً إلى هذا الحد " يقولها بعد مبالاة " ثم إن أخيك متردداً " وهنا استيقظ عمرو من ذهوله ليسمع ماذا سيقول عدي "

كرامة : مقاطعة له ما له هذا الذي تدعوه بأخي ؟

عدي : هو من .. هو الذي ..

عمرو : يستدير عمرو وينظر نحو عدي ويصيح .. ماذا تريد أن تقول صه وإلا ...

عدي : إذن دع أختك تكف عن غلوائها ، ألا ترى كيف غبت وثارت ثائرتها حتى أصبحت لا تعي ما تقول ، ومن أجل من ؟؟ تكيل لنا أقذع السباب وأسوأ الأوصاف ، من أجل ذلك المدعو شويل .. ثم ولماذا هذا الاهتمام كله هيه ، هل هناك ما لا نعرفه ؟

كرامة : ونقد فقدت كل سيطرتها على أعصابها وتصيح بصوت ينضح غضباً وحقداً .. اخرس يا سافل ، وإلا أنا التي ستعرف كيف تؤدبك إن لم تجد رجلاً يؤدبونك وتهجم عليه ، وقد انتضت سيفاً كان معلقاً على حائط القاعة التي كان

يـدور فيهـا النقـاش، ولمـا رأى عـدي أن كرامـة قـد أصـبحت لبـؤة شرسـة لا يقـف بوجهها شيء فر وهو يولول ويقول: لا ذنب لي إنه أخوك إنه أخوك .

في هذه اللحظة أفاق والدها من نومه وأتى هو بين النائم واليقظان يفرك عينيه ويسأل ما الخبر ، ما هذه الجلبة التي أسمع ، وكان قد اقترب من ولديه وأصبح يقظاً تماماً.

بدا الارتباك والدهشة على عمرو وكرامة وهمت كرامة واقتربت من أبيها بشكل يوحي أنها على وشك إخبار أبيها الخبر الصاعق ، ونظر إليها عمرو بنظرة فيها ضراعة ورجاء ويسبقها إلى أبيه مخاطباً .

عمرو : " يحاول أن يتماسك" أبي لقد استيقظت . لا شيء البتة يا أبي لا شيء ، فقط غضبت كرامة لأنها ظنت أن بي شيئاً من السكر فغضبت على عدي وطردته من القصر .. هذا كل ما في الأمر .

وعمرو : لطالما نهيتك عن تناول الخمر والإفراط بها وعن صحبة عدي لأنني لا أريده لك صاحباً ، ولكنكم أبناء هذه الأيام لا تعيرون حكمة الشيوخ وتجاربهم كبير اهتمامكم هيه أين تلك الأيام الخوالي . على كل حال لا تعد لمثل هذه الأفعال وليذهب كل واحد منكم إلى فراشه .

عمرو وكرامة : حسناً يا أبي عمت مساءً .

أبو عمرو : عمتم مساءً .

أما صفية وكرامة ما إن توارتا عن الأنظار في جناحيهما حتى استولت عليهما الهواجس والأفكار وبدأت كرامة ترتجف خوفاً وهلعاً ، وبذلت صفية غاية جهدها وكل ما لديها من قول مطمئن حتى تهدأ من روع كرامة وبلبالها ورعبها ، ولكن هيهات لقلب المحب أن يهدأ وعينه أن يغمض لها جفن أو يزورها طائف الكرى إذا شعر أن شوكة قد شاكت قدم الحبيب ، فكيف بقلب كرامة أني عرف الطمأنينة والهدوء وعينيها أن تعرف الكرى والوسن وقد سمعت ورأت ما يؤكد لها أن الشر يحيط بحبيبها ، بل قد أحاط به فعلاً ومن يدري لعلهم قد تمكنوا منه ، ثم تعود وتطرد هذه الهواجس وتحاول أن تقلل من خوفها اعتماداً على شجاعة شويل وحسن تدبيره وقدرته على الخروج من المواقف الحرجة ، ولكن من يدري ، وما عسى القدر أن يفعل بينما هي غارقة في بحر تفكير والدمع الهتون منصباً على وجنتها انصباب الطل على ورد فواح الشذى في ليلة ندية" وقد فاضت بالدمع منها المحاجر " وصفية ملتاعة تكاد روحها تخرج من بين أجنبيها حزناً وألماً على حبيبتها تحاول أن تبعث الأمل في نفسها وتطرد جيوش اليأس من صدرها علها تستريح ويخفف ما بها ، وفي هذا الجو العاطفي المشحون الذي يمزق الأكباد ويفري الفؤاد قالت فجأة وهي تنشج وتشرق بدموعها .

كرامة : صفية أريدك يا حبيبتي في هذه الساعة من الليل أو فقدنا عقلينا .

كرامة : لا لم أفقد عقلي ، بل أنا في تمام اليقظة ، ولكن كيف الكرى أن يزور

جفني بعد ما سمعت الذي سمعت .

صفية : كرامة حبيبتي اهدئي أرجوك ، حكمي عقلك ولو للحظة ودعي عنك هذه الهواجس الشريرة ، وإني أسألك لو أنه قد وقع مكروه لشويل أما كانت المدينة كلها قد عرفت الخبر وسادها الهرج والمرج كما سادها ليلة مقتل ابن زهير في العام المنصرم .
كرامة : أجل أذكر تلك الليلة وكيف قمت من نومي فزعة مذعورة .
صفية : إذن لماذا لا تفكرين ثم هل ابن زهير بمكانة شويل وخطورة شويل ، بل لا يعد قرناً من أقران شويل ، فلو لا قدر الله حصل لشويل ما تقولين لعرفنا الآن بالتو واللحظة، انظري ألا ترين الحيرة نائمة هادئة .
كرامة : فعلاً ما تقولين منطقياً ، وقد يبعث بعض الهدوء في النفس ، ولكن ليس كل الهدوء .. أرجوك يا صفية أتوسل إليك أتضنين علي بهذا الطلب ، أعرف أنه صعب ، وليس بالسهل ، ولكن ما أحس به أصعب وأشد وآلم للنفس وأوجع للفؤاد وأضرع إليك ألا خيبتني ، ثم إن أبيت أرى لزاماً علي أن أهب بنفسي وليكن ما يكون ..
وهنا أصبح الأمر محرجاً جدا وأصبح لا مناص من لذهاب .
صفية : بأبي أنت وأمي يا حبيبتي ، إنني أفديك بالروح في سبيل رضاك ، ولا أبالي بالصعب من الأمور في سبيل مرضاتك ، سأذهب وآتيك بالخبر اليقين .
كرامة : ما أكرمك يا صفية ، إنني عاجزة عن شكرك ، وإنني لا أعرف ماذا أعمل بدونك، اذهبي راشدة بعون الله .
صفية : وداعاً .
عادت صفية مع خيوط الفجر الأولى وقد هدها التعب والسهر والضنك ودخلت القصر متسللة كما خرجت كان شيئاً لم يحدث ودخلت إلى حيث كرامة فوجدتها ساهرة العين مقرحة الجفن على أحر من الجمر تترقب بلهفة وضراعة ، دخلت عليها صفية متهللة الوجه باسمة الثغر تستفسر وتسال فأومأت إليها صفية أن اهدئي تريثي حتى أجلس قائلة ها .
صفية : لقد جئتك بالخبر اليقين فاسمعي .
كرامة : بلهفة ممزوجة ببعض الخوف أسرعي كلي آذان صاغية .
صفية : لقد ذهبت من عندك وحومت حول القصر وبالقرب منه والخادم الذي معي فلم نرى شيئاً يدعو إلى الريبة والشك ، والقصر هادئ نائم في وداعة وسكون بين أشجاره وورده لا يعكر صفوه إلا بعض نقيق الضفادع وخرير المياه وبعض أصوات خشخشة الأشجار .
كرامة : أهذا كل شيء ؟

صفية : لا بل هناك شيء آخر ، لقد ترجلت أنا وخادمي عن الجوادين وتسللنا بخفة ونشاط حتى قربنا جيداً من القصر ورأيت بإسطبل الخيل الأدهم وفرس أخرى أظنها فرس عتيبة وبعض الحرس نائم بالقرب منها .
كرامة : الحمد لله ، هذا يعني أن شويلاً سليماً ، وأن عتيبة أيضاً نائم عندهم بالقصر.
صفية : أجل ، وهل استراح بالك الآن ؟ أرجوك دعيني الآن أغفو بعض الشيء .
كرامة : شكراً لك شكراً وللسماء التي أرسلتك لي ، والآن عمت مساءً ، لا بل عمت صباحاً .

وهكذا أوت كرامة إلى فراشها وقلبها يرقص فرحاً وطرباً وخيل لها أن كل سعادة الأرض قد جمعت لها وخصت بها وحدها ، وشرعت بخدر لذيذ يسري بأوصالها جميعاً فأسكرها بدون راح وجعلها تذهب في نوم عميق وطيف بسمة سعيدة ترف على ثغرها الجميل .

في صباح ذلك اليوم شاع الخبر بين الناس وعرف القاصي والداني بمحاولة الاغتيال الحقيرة التي تعرض لها شويل وأن شويلاً سليم معافى إلا من جرح بسيط في عضده الأيسر ، وأن الذي قام بمحاولة الاغتيال الذميمة هو احد الصعاليك التابعين إلى ضمرة بن مرة الضمري .

أخذ الناس يعودونه ويتوافدون إلى قصره مهنئين بالسلامة ، وكان أول المهنئين إياس بن قبيصة وهانئ بن قبيصة وأبو عمرو وابنه عمرو ، وكذلك المدعو عدي ، وكان أكثر القوم أسفاً وانزعاجاً لما حل لشويل من محاولة أثيمة إذ أظهر كل عاطفة وكشف عن كل الحب والود ،وتمنى لو قيظت له الأقدار تلك الفرصة الثمينة ساعة الاعتداء لرأي شويل كيف سيقف مدافعاً عنه ، وكيف أن المجرم الآخر كان هو الآخر صريع سوء فعلته . أما شويل فشكر الجميع على عواطفهم النبيلة وخصوصاً عمرو وعدياً ، ولكن شويل كان على أحر من الجمر لموعد لقائه مع سالبه اللب ومالكه الفؤاد ، وكذلك هي كرامة كانت تتلظى على أحر من الجمر وترى أن الساعات والدقائق قد طالت بشكل غير عادي وأصبحت وكأنها لا نهاية لها ، إنها ترقب ساعة الميعاد بقلب واجف ، ولكن كلما طاف بخاطرها أن المدبر للمحاولة أخوها وذلك الحقير عدي انقبض قلبها وتكدرت نفسها وراودتها شتى الأفكار ، وهل ستخبر شويلاً بما تعرف ، ولكن إذا أخبرته فإنها سوف لا تحصل على شيء ، بل على المتاعب والآلام ،وسوف تثور فتنة عمياء هوجاء لا يعرف نهايتها إلا الله وبالتالي سوف تخسر شويلاً وإلى الأبد ، وما دام شويل قد نجا فالأفضل عدم إخباره واعتبار الأمر منتهياً ، وهذا هو الرأي الراجح والفكر الثاقب ، هكذا كانت أفكارها وخواطرها ، وهكذا وصلت إلى ذلك القرار بعد تمحيص وإعمال فكر شديدين وأخبرت صفية بما قر عليه رأيها فباركته صفية وقالت لها نعم القرار يا ابنتي.

حان موعد لقائها مع شويل بعد انتظار مرير ، فاستعدت للذهاب هناك ومعها صفية وقلبها يخفق بين ضلوعها ، كأنه يريد أن يقفز من مكانه ليسبقها إلى لقاء الحبيب ، وعندما وصلت إلى حيث يلتقي العاشقان فوجدتاه واقفاً منتظراً وعضده

قد ضمد فهرعا إلى بضها ونسيا صفية ووجودها ، فقالت لهما صفية على رسلكما يا هذين دعني أهنئك أولاً بالسلام يا شويل ، فانتبها لها ولوجودها واكتسى وجه كرامة بمسحة من الحمرة واستأخرت قليلاً عن شويل حيث تقدمت صفية وصافحته مهنئة لها شاتمة الأوغاد الحقيرين فشكرها شويل على عظيم اهتمامها وصادق ودها ، وهنا قالت كرامة :

كرامة : حمداً لله على سلامتك يا قرة العين ومنية الفؤاد .

وهنا تظاهرت صفية بأنها تنظر إلى بعض الأزهار وتبحث بين الأشجار وأخذت تبتعد قليلاً قليلاً حتى أصبحت بعيدة عنهما مسافة كافية فجلست حيث اعتادت تجلس وكأنها ترقب وتحرس لهما المكان .

شويل : متقدماً منها وهو يقول أهلاً بك أهلاً بحبيبة القلب ، كم أنا متلهف للقياك.

كرامة : لا ليس مثلي ، ولقد أمضيت النهار وأنا أعد الدقائق وثوانيه ، فكان أطول نهار في حياتي ، بل أطول يوم في الزمان ، فكأن الشمس لا تريم ولا تريد زوالاً ولا غروباً، والآن أخبريني عن يدك وهل الجرح كبير ؟ وكيف تمكن منك اللعين ؟ وعن ..

شويل : كرامة حبيبتي مهلاً لما كل هذه الأسئلة وهذا التلهف ؟ سأخبرك بكل شيء.

كرامة : أجل بكل شيء من ساعة انتهاء السباق حتى هذه الساعة .

شويل : كما تشائين أيتها الحبيبة ، وبدأ يقص لها جميع ما مر به .

كرامة : ابن اللئيمة تقول أنه عادك وأظهر كل النبل والكرم .

شويل : أجل كذلك أخوك عمرو ، إنني أكاد لا أصدق كل هذا النبل وتلك العواطف النبيلة من أخيك ، إن هذا يجعل أمر زواجنا سهلاً .

كرامة : وقد اكتسى وجهها مسحة من الجدية وبعض الأسى" عجيب والله أمرهما.

شويل : وأي عجب بها ؟ أهناك عجب أن زاراني واطمأنا علي ؟

كرامة : تسكت ويمر بفكرها شريط كل ما حدث وما سمعت من عدي وعمرو ، فتكاد تتمزق غيظاً وحقداً ، ولكنها بذلك جهداً جباراً لتخفي من أن يظهر شيئاً على وجهها ينم عن سرها .

شويل : أراك صامتة كأن الكلام قد نفد من فيك وقلبك ، أرجوك غردي ولا تصمتي .

هنا أفاقت كرامة من سرحانها وعاد لها عزمها وتصميمها بأن لا تدع مجالاً للشك يطوف بخاطر شويل ، فعادت البسمة وأشرقت على محياها الجميل .

كرامة : فعلاً إن الوقت ليس وقت السكوت والصمت ، بل وقت الفرح والنشوة .

وقفزت من أمام شويل كالظبي الشارد ، فلحق بها شويل وكأنه يحاول الإمساك بها وهي تحاول الانفلات منه ، وهما يقهقهان ويضحكان ، وكلما حاول

الإمساك بها أفلتت من قبضته ، وأخيراً وصلا إلى تحت شجرة باسقة جميلة ، فجلست كرامة تحتها ولحق بها شويل وجلس قبالتها وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ، وبين الفينة والفينة ترن ضحكات الفرح والحبور ، وبعد أن قضيا ساعة أو بعض الساعة كانت الشمس قد بدأت تتدلى في بحر الأفق والشفق الأحمر يغمر الأرض مؤذناً بأن الشمس قد آن لها الرحيل ، وهنا جاءهما صوت صفية تنادي كرامة .

صفية : يا كرامة ، هيا بنا لقد حانت ساعة العودة قبل أن يتأخر بنا الوقت .

شويل : مهلاً صفية لما العجلة ، لا زال هناك متسع من الوقت .

كرامة : فعلاً لقد تأخرنا ، علي بالذهاب .

شويل : وأنت أيضاً أيتها الحبيبة على عجلة من أمرك ، أرجوك ابق ولو لدقائق ، إنني لا أمل النظر إليك ، ولا أطيق أن أرفع بصري عن هذا لوجه الملائكي الجميل و ...

كرامة : تقفز مبتعدة ، كفى كفى أرجوك لا تجعلني أضعف ، يجب أن أرحل .

يشيران له بيديهما مبتعدتين .

الفصل الثامن

كما مر بنا في الفصل السابق هكذا يمضي الوقت بشويل وكرامة ، وعلى هذا المنوال من اللقاءات المتكررة والحب العارم المتدفق حتى ظنا أن الزمان قد صفا لهما ، وأن الأقدار قد نسيتهما ، وأن حدثان الدهر قد أفقت عليهما فتركتهما يغرفان من غدران السعادة ألذ شراب وأحلى شهد حتى أترعت كؤوس حبهما بأحلى العواطف وأجمل الأوقات ،وهكذا مضى بهما الوقت هيناً ليناً لذيذاً ، وما دريا بما كان يدبر لهما القدر على يد ذلك المدعو عدي، إذ أن هذا قد استعمل غلاماً من غلمان شويل أغراه بالمال والهدايا وطلب منه فقط أن يخبره عن كل حركات شويل وسكناته ، وكيف تمضي به الأوقات والأيام . وبهذه الطريقة أصبحت أخبار شويل تصل إلى عدي أولاً بأول ، وهذا يقوم بدوره بإخبار عمرو بما يريد أن يخبره ويسر في نفسه ما يريد أن يسر ، ولأمر في نفسه لم يقم بإخبار عمرو بلقاءات شويل وكرامة ، إذ كان يرى أن الوقت لم يحن ليعرف عمرو بالخبر ، وهكذا مضت الأيام وشويل يظن أن الدنيا قد صفت له ، وأن الزمان قد جاد عليه بما لم يجد بمثله على غيره ، وعدي يقدح زناد فكره وقريحته ليوقع بشويل ويقضي على هذا المنافس العنيد الخطر الذي سلبه حبه وقلبه .

وفي هذه الأثناء كان قد عاد سعيد بن مرة الشيباني من رحلته التي قام بها لمضارب قريبه وصديقه فارس بني شيبان المثنى بن حارثة الشيباني ، وكانت نفسه قد تاقت واشتاقت لرؤية صديقيه الحميمين شويل وعتيبة بن النهاس العجلي ، وهكذا وبعد أن أمضى بعض الوقت بين أهله وعشيرته نراه قد يمم شطره صوب منازل عتيبة بن النهاس وما أن تقابلا حتى تلقاه عتيبة بالحب والشوق ، وبعد أن تعانقا عناق الأحبة الأوفياء لاحظ عتيبة أن سعيداً قد حياة بتحية غريبة ما سمعتها أذناه قط

، ولا تعارف عليها حي من أحياء العرب ، وكانت تلك التحية التي رنت بأذنيه أول ما رنت هي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فلم يستطع صبراً عن سؤال صديقه عن هذه التحية التي ما سمعها قط .
عتيبة : لقد حييتني بتحية لم أسمع بها ولا تحيي العرب بها أبداً ، ثم لم أعرف ما أجيبك عليها . ثم إنني أراك قد عدت إلينا بوجه غير الوجه الذي فارقتنا عليه . لئن صدق ني إن وراءك لأمر جلل وشأن ذو بال .
سعيد : يجيبه باسماً هامساً له : أجل ، إن ظنك صادق ، وإنه لأمر عظيم سيغير وجه هذه الأرض ، ثم إن التحية التي حييتك بها هي تحية الإسلام .
عتيبة : وقد زادت دهشته وسيطر عليه الوجوم وهو يفكر : ما هذا الكلام الذي لم تتعود عليه أذناه ، ما هذا الكلام يا أخي .. ؟؟ إسلام ... والله إنه لأمر عجيب ، ثم يجيب سعيداً بهذه الجملة ، وما يدري ما يقول له غيرها ، أصبئت يا سعيد ؟؟
سعيد : لا بل أسلمت .
عتيبة : لا تزال إمارات الدهشة بادية على وجهه ، وإن شابها بعض ملامح الغضب، ويسأل سعيداً بلهجة أكثر إلحاحاً واحد صوتاً : ولكن ما الذي جعلك تصبأ هكذا سريعاً وتفارق دين آبائك وأجدادك ؟
سعيد : تظهر علائم الجدية على وجهه ويجيبه بصوت كله ثقة وإصرار : يا أخي قلت لك أسلمت لا صبأت .
عتيبة : ما الفرق أسلمت أم صبئت ، كل واحد ، ثم قل لي لم تجب على سؤالي ، من ذا الذي جعلك .. ؟؟؟ " ويتظاهر بالتردد والتلعثم كأنه قد نسي كلمة أسلمت " ماذا قلت.. ؟؟
سعيد : أسلمت قلت لك أسلمت ألا تسمع .. ؟؟
عتيبة : آه .. سمعت من الذي جعلك تسلم ؟؟
سعيد : إنه المثنى بن حارثة الشيباني ، وقد فشا الإسلام في أهله وعشيرته .. آه يا عتيبة لو رأيت ما رأيت ...
عتيبة : مقاطعاً وبصوت ممزوج بالغضب وبصوت لا هو بالعالي ولا المنخفض : لا أريد أن أرى ولا أسمع .
سعيد : مهلاً أخي عتيبة ، ما ظنك بالرائد ؟
عتيبة : الرائد ، لا يكذب أهله .
سعيد : فأنا لكم رائد .
عتيبة : لا لا إلا هذه ماذا ستصنع بدين الأجداد والآباء يا هذا هيه ماذا تصنع أجبني ؟؟
سعيد : دين الآباء والأجداد ؟؟ ولكن ما ظنك إذ هدينا إلى دين سمح يدعو إلى الرشد وإلى مكارم الأخلاق ويدعو العرب إلى جمع كلمتهم ولم شعثهم وتوحيد جماعتهم في وجه الطغيان والفساد لينتصروا على ضعف نفوسهم وتفرق كلمتهم وأكثر من هذا ليخلصهم من حاكميهم وظالميهم الفرس والروم .

عتيبة : " وقد راق له الكلام ولكن لا يزال يكابر ويشكك " يقولون إنه ساحر .. أو شاعر وربما كاهناً .
سعيد : وقد لاحظ على تعابير وجه عتيبة بعض اللين وبعض إعمال الفكر فاغتنمها فرصة سانحة ليقول ما عنده ، يا أخي عتيبة ما ضرك لو استمعت مني ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره .
عتيبة : " يحدث نفسه واثكل أمي والله إني لرجل لبيب ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع لصديقي ما يقول " . لقد أنصفت يا سعيد هات ما عندك وبدأ مستعداً للسماع .
سعيد : أخذ سعيد يقرأ عليه ما تيسر من القرآن الكريم وقرأ وأجاد ، وكان من جملة ما قرأ .

بسم الله الرحمن الرحيم

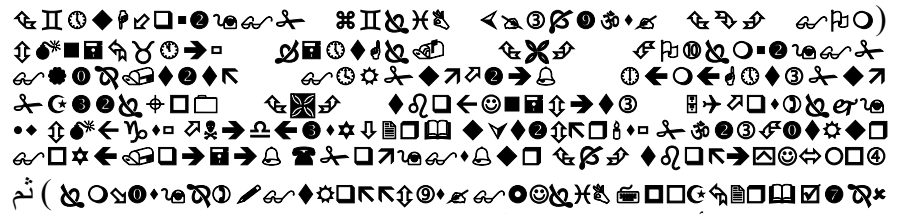

ثم مضى سعيد يقرأ وعتيبة يسمع ، فلما انتهى سعيد . بان الإسلام في وجه عتيبة وظهر فرقت ملامحه وصفا وجهه وعلت وجهه مسحة من الخشوع والصفاء حتى لكأنك ترى عينيه وقد ترقرقت بالدموع وقال :
عتيبة : ما أحسن هذا الكلام وأجمله والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه . كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟؟
سعيد : تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق قائلاً " الشهادتين " ثم تصلي .
فقام عتيبة لتوه فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد الشهادة ثم قام فركع ركعتين كما علمه سعيد . ففرح به سعيد أيما فرح وعانقه عناق الإخوان الأوفياء وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله أن هدى صديقه إلى الإسلام وفتح مغاليق قلبه إلى نور الإيمان وشعر أنه أصبح قوياً بما فيه الكفاية وأنه سيكون له خير نصير وأعظم سند في نشر هذا الدين الحنيف في هذه الربوع التي تسمع بالإسلام وما يحلاك ضده وينسج من أوهام وأباطيل دون أن تراه وتعرف حقيقته ، وهنا شعر سعيد أن قد بقي عليه أن يدعو أخاً آخر وصديقاً مخلصاً إلى الإسلام ، ألا وهو شويل ، ولذلك بادر عتيبة بها السؤال :
سعيد : ألا أخبرتني يا أخي ما هي أخبار صديقنا شويل ؟

عتيبة : إن شويلاً في أحسن حال والأيام كما أراها تمضي به رغدة مطمئنة على الرغم مما كدرها . سعيد : وما الذي كدرها عليه ؟
عتيبة : لقد جرت محاولة لقتله ليلة تركتنا .
عتيبة : بلهفة أحقاً ؟؟ أرجوك أخبرني بكل التفاصيل ، لقد شوقتني إلى رؤيته .
عتيبة : " بعد أن قص القصة كلها على سعيد " قال أرى أن نذهب الآن إلى شويل فنخبره خبرك ، وما جئتنا به من الحق وأنت تعلم بأنه امرؤ عدل وصدق ولا أظنه يتخلف عنا .
سعيد : نرجو من الله تعالى ذلك ، هيا بنا إلى هناك .
وفعلاً أسرجا جواديهما وقصدا إلى حيث يقيم شويل .
شويل : جالساً في حديقة قصره فيرى من بعيد عتيبة وسعيد قادمين نحوه ، ولما قربا منه ينهض لاستقبالهما هاشاً باشاً ومرحباً ، ولما قربا منه حدث نفسه قائلاً والله لكأني أرى وجهيهما غير الوجهين اللذين عرفتهما بهما ، وعند وصولهما إليه ألقيا معاً تحية الإسلام فبهت شويل ولكنهما لم يدعا له فرصة للتفكير والذهول إذ أخذه سعيد يحضنه وعانقه مهنئاً له بالسلامة ، وكذلك فعل عتيبة وهو ذاهل لا يعرف بما يجيب أو يرد على هذه التحية الغريبة على أذنيه ، وأخيرا استطاع أن يقول ..
شويل : مهلاً مهلاً صديقي ، لقد أربكتماني ودهشت لما أسمع منكما .. ما هذه التحية التي لا تعرفها بوادينا ؟
عتيبة : " يجيبه بزهو وفرح " ألا تعلم أنها تحية الإسلام .
شويل : " بعجب ودهشة يسأله " عتيبة ؟ ما هذا الذي أسمع ؟؟
عتيبة : " مؤكداً ومتمهلاً بالإجابة " لقد قلت لك أنها تحية الإسلام .
شويل : " وقد عقدت لسانه الدهشة والمفاجأة ووضع يده على جبينه وكأنه يحاول أن يتذكر شيئاً وأخيراً " آه .. تقصد أنها تحية ذلك القرشي محمد .

سعيد : بل تحية النبي محمد –صلى الله عليه وسلم –تحية الإسلام .
شويل : " وبصوت أعلى نبرة " سعيد ما هذا .. وأنت أيضاً ؟
سعيد : أجل وأنا أيضاً ، بل وإنا نرجو الله تعالى أن تكون ثالثنا .
شويل : أنا أكون ثالثكم ؟ معاذ الله بل مستحيل .
عتيبة : مستحيل ؟ لماذا ؟ وما عهدي بك تهرب من الحقيقة وأنت الفارس المقدام والعاقل الحكيم .
شويل : وأية حقيقة تلك التي أهرب منها ؟
عتيبة : حقيقة الإسلام .
شويل : عتيبة " يقولها بصوت مرتفع قليلاً " أراك أصبحت ضليعاً بهذا الدين الجديد من ذا الذي أثر فيك ؟ وما عهدتك كذلك .

عتيبة : الخير كل الخير نالني من سعيد . إنه سعيد إذ جاء بالإسلام من مضارب المثنى بن حارثة .
شويل : " يسأل بتعجب وموجهاً حديثه إلى سعيد " أتقصد أن المثنى وقبائله قد صبأت؟؟
سعيد : بل أسلمت يا شويل ، ثم أتدري يا شويل ، إنا ندعوك إلى عز الدنيا والآخرة .
شويل : وما عز الآخرة هذا يا سعيد ؟ إني لا أعرف الإنسان إلا نطفة مدرة أو جيفة قذرة.
سعيد : أنت جد مخطئ يا صديقي . الآخرة حقيقة واقعة وستحاسب كل نفس عما جنت، فإن خيراً فخير ، وجزاؤها الجنة ، وإن شراً فشر ، وجزاؤها النار . ألا تسمع قوله تعالى بما أنزل على قلب نبيه محمد : (ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .
شويل : إني والله لأسمع أمراً عجيباً ما عهدتكما تجيدانه من قبل .
سعيد : إنه القرآن الكريم المنزل على قلب النبي الأمين .
شويل : إن هي إلا أساطير الأولين " يقولها باستهزاء ولا مبالاة " .
سعيد : ما هذا ؟ أليس لك في نفسك آية ألا تنظر لنفسك كيف خلقت . وهذه الأجنة من ذا الذي يصورها فقي الأرحام ثم تخرج من أرحامها ، فإذا هي بشراً سوياً . ثم من ذا الذي خلق لك السمع والبصر والفؤاد ؟ ثم ألا تتدبر في خلق السموات والأرض ؟ من ذا الذي خلقها وأحكم صنعها ، فلا تجدن فيها من فروح . ألا ترى الأكوان جميعها تسير بتناسق وتناغم تحكمها قوانين ثابتة متكاملة متتامة لتؤدي عملاً موزوناً بدقة متناهية . ثم ألا تفكر بتعاقب الليل والنهار ، لا يتخلف أحدهما عن الآخر . ألا يوحي لك هذا كله بخالق خلق وأبدع وصور وأحسن ، خالق قادر فريد أبدي لا بداية له ولا نهاية من قبل الزمان والمكان وبعد الزمان والمكان .
شويل : " بعصبية ظاهرة وبصوت مرتفع " كفى كفى يكاد رأسي ينفجر ، ثم يضع رأسه بين يديه ويبدو وكأنه قد ذهب بتفكير عميق .
فيسكت سعيد لحظات ثم يشعر أنه يجب عليه أن يواصل كلامه علها تضعف مقاومته وينشرح صدره إلى الإيمان .
سعيد : لو جاء الآن أحد غلمانك وقال لك يا سيدي كنت أقف على نهر الفرات فما رأيت إلا وقطع خشبية متناثرة يربها الموج ثم رأيتها فجأة تتجمع وتتقارب وإذ بها تصبح قارباً بديع الصنع ، جميلاً منظره فركبته وقطعت الفرات أمصدقه أنت ؟
شويل : ما هذا الهراء ، لا بد وأن يكون الغلام مجنوناً إذ كيف يصنع القارب بدون صانع؟
سعيد : لقد قضيت يا شويل ، إذن كيف تصنع هذه الأكوان الجبارة بدون صانع وخالق ، هكذا لوحدها ؟ كيف اجتمعت مليارات المليارات من الكواكب والنجوم والمواد والعناصر .

فكونت هذا التناسق العجيب الذي ينبض كله بتناسق عجيب كنبضة قلب رجل واحد لا يتخلف أحدها ولا يتقدم مهما كبر أصبح كالمجرات أ, صغر حجمها حتى أصبح ذرات ، ألا ترى القصد والإرادة ، القدرة والحكمة والعقل من كل هذا ، لا يا شويل ، إن الذي صنعها وأجاد صنعتها ثم دبرها فأحسن تدبيرها وخلقها بعد عدم سبحانه فاطر السموات والأرض هو الله العالم القادر المريد . أليس كل هذه الآثار التي تراها في نفسك وفيما حولك تدلك على الخالق الواحد القادر ؟

فبهت شويل لهذا الكلام الرائع والحجة البينة من سعيد ، وهنا يتدخل عتيبة قائلاً :

عتيبة : يا سعيد ، إني أرى أن تسمعه بعض من القرآن الكريم ، ثم أنت يا شويل ما رأيك أن تسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهت أمراً كُفّ عنك وفارقناك إلى غير رجعة .

شويل : " هدأ روعه وظهر عليه بعض الاقتناع بما ساق له سعيد من أدلة وبراهين وحجج " فعلاً لقد أنصفتماني ، فهات يا سعيد ما عندك .

وهنا قرأ عليه بعض آيات الذكر الحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

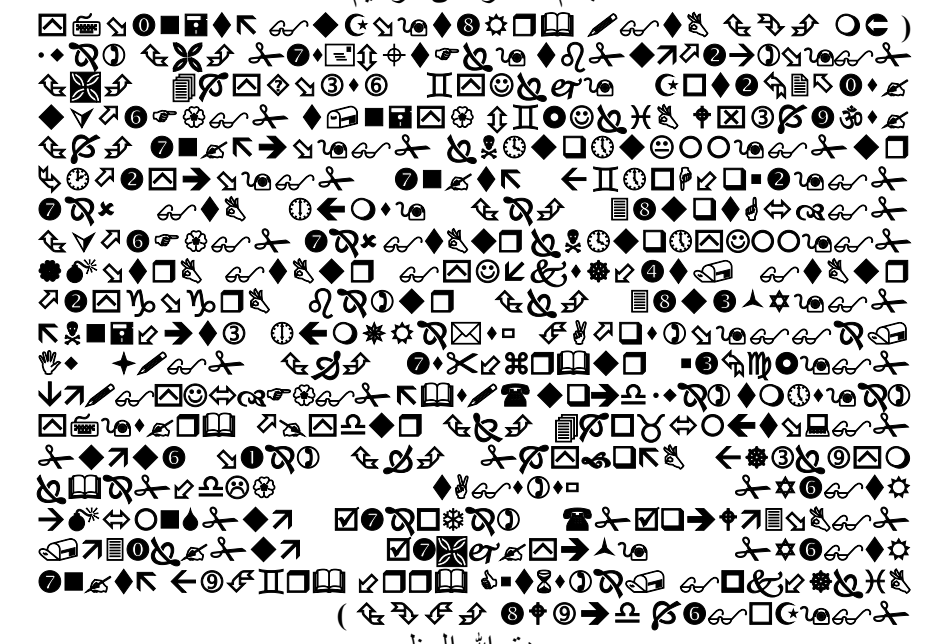

صدق الله العظيم

شويل : يا إلهي ماذا أسمع ، والله ما هو بقول بشر ولا سجع كاهن أو شعر شاعر ، والله لا أحلى ولا أطلى ، إنه يأخذ بمجامع القلوب ويخلب الألباب ويدخل على

الفؤاد بدون استئذان .
سعيد : أجل يا شويل ، أجل إنه قول عزيز حكيم .
شويل : " متهللاً منشرحاً صدره للإسلام ، وقد انهارت جميع الحواجز والسدود التي كانت تقف في نفسه دون الإسلام" دلاني ماذا أصنع حتى أكون مثلكما في التو والساعة .
سعيد : أمر بسيط ، تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق وتصلي .
فعلاً قام شويل من توه فاغتسل وتطهر ثم دلاه كيف يشهد شهادة الحق وعلماه الصلاة وبعدها قال لهما :
شويل : أرى أن نكتم الخبر عن أهل الحيرة وعرب الضاحية ونسر بالأمر لمن نثق .
وبعد أن جلسوا بعض الوقت وهم يتحادثون ويرسمون الخطط نهض سعيد وعتيبة منصرفين فودعهما شويل وبعد انصرافهم لاقته أمه .
أم شويل : لقد كان نقاشاً حامياً مع صاحبيك .
شويل : أسمعت ما دار فيه ؟
أم شويل : لا ، ولكن بين الفينة والأخرى كنت أسمع بعض الكلمات الغريبة ، ألا أوضحت لي .
شويل : يا أمي العزيزة .. متردداً قبل أن يواصل كلامه ..
أم شويل : قل يا بني ، قل فدتك روحي .

شويل : يا أمي إنه دين جديد ، إنه دين الإسلام الذي بعث به النبي محمد بن عبد الله من قريش ومن سنامها .
أم شويل : لقد عهدت بك الحكمة ورجاحة العقل وصواب الرأي ، هل قر لك رأي بشأنه ؟
شويل : أجل يا أمي أجل ، لقد أسلمت وفرّق بيني وبينك ناشدتك الله يا أمي .
أم شويل : ولدي الحبيب لا يُفرق بيني وبينك مفرق . أنتكل حياتي وقلبي ، وما يسعدك يسعدني .
شويل : يا أمي العظيمة ، إذن أسلمي يا أمي أسلمي .
أم شويل : أجل يا بني ، ولكن ماذا أقول وكيف أصنع ؟
شويل : تغتسلي وتتطهري وتشهدي شهادة الحق .
وهكذا علمها شويل ماذا تقول وتفعل ، وسر غاية السرور وملأته الغبطة والحبور لإسلام أمه ، ثم استودعته أمه وذهبت إلى فراشها إذ كان الوقت متأخراً من الليل، وبقي شويل ساهد الجفن ساهر العين غارقاً في التفكير بكرامة وبما جد عليه من إسلام ، وأخيراً زفر زفرة حرى وتمدد في فراشه وهو يدعو الله سبحانه أن يشرح قلبها ويهديها إلى الإسلام، وبذلك تتم فرحته العظمى وسعادته اللامتناهية

، وأخيراً راود النعاس جفنيه وغلبه سلطان النوم فنام .

استفاق شويل في صباح ذلك اليوم باكراً على غير عادته ، ومضى يومه وهو يستعجل ساعة لقياه بحبيبة القلب ، وتراه ساعة يبدو متلهفاً مستعجلاً لموعده مع كرامة وخصوصاً عندما تلوح في ثنايا نفسه بارقة أمل بأنها تحبه ولابد وأن تتابعه على دينه الجديد الذي صقل روحه وأنار دربه وحلق فيه في أجواء روحانية ربانية فتراه وقد غمرته سعادة غامرة ونشوة عارمة فيحس وكأن كل جارحة فيه وقد غمرها فيض من السعادة العارمة التي لا يستطيع لها وصف ، ويشعر وكأن روحه تزغرد طرباً وترقص فرحاً فيستعجل اللقاء ويمني النفس الأماني العذاب وطورا آخر تراه وقد خبت نسه وثقل صدره وصعب تنفسه وازدادت دقات قلبه كأنما طاف بخاطره أنها لا تتابعه ، وكلما وسوس له شيطانه أنها سوف تصده ولا تقبل منه قوله فيتمنى الموت وأن لا تحين ساعة اللقاء ، وهكذا دواليك ، تراه ساعة في قمة السعادة والحبور وطوراً منكمشاً متبرماً ضجراً من هذا اللقاء الذي قد يكون نهاية حبه وسعادته . في هذه الحالة النفسية المتقلبة بين التفاؤل والتشاؤم كانت ساعة اللقاء ، وهو يضرب أخماساً بأسداس يستحث جواده مرة ويؤخره أخرى ، مرة يريده أن يطير إليها زافاً إليها البشرى ، ومرة يريد أن ينكص على عقبيه لا يلوي على شيء مخافة هذا اللقاء ، ولكن لابد منه مواصلاً السير وأخيراً وصل متأخراً بعض الوقت ، وهناك وجد كرامة ومصفية قد سبقتاه ، وبعد أن حياهما جلس واجماً ساهماً مطرقاً ينكت بعودة في التراب في حالة تفكير عميق لا يرفع بصره نحوها ، وإذا رفع بصره بين الحين والآخر تراه وقد غ بصره بسرعة وعاد إلى وجومه وسهومه والحيرة بادية على محياه .

كرامة : يا للعجب ، إنني أستغرب حالتك هذه . هل حدث شيء لا علم لي به ؟؟

شويل : لا أبداً ، وقالها باقتضاب وانتزعها من حلقه الجاف انتزاعاً" .

كرامة : هذا غير صحيح ، إنك على غير عادتك . أراك واجماً ساهماً مضطرباً ، وكأنك تخفي عني أمراً عظيماً جللاً وعهدي بك ضاحكاً مرحاً .

شويل : " يحدث نفسه ولا يدري ما يقول ، وكيف يبدأ الحديث معها ، ويدعو ربه أن يساعده ويحلل عقدة لسانه ، فأجابه كرامة قائلاً ببعض الحدة" قلت لا شيء لا شيء " .

كرامة : متسائلة متعجبة" شويل .. ؟ أتقول لا شيء ؟ إذن لماذا هذه الحدة في نبرات صوتك ، وهذا الاضطراب البادي على وجهك ؟ بالله عليك ألا أخبرتني بما يشغلك علني أكون خير مساعدة لك . قل لي أحدث مكروه لا سمح الله ؟؟؟

شويل : تالله لا أدري كيف أبدأ الحديث معك ومن أين ؟

كرامة : أي حديث هذا ظ؟ أهناك حديث غير حديث حبنا وسعادتنا الغامرة التي تنتظرنا في مستقبل الأيام ... ؟

شويل : أجل يا كرامة أجل .. هناك حديث جد خطير ويتراجع أمامه كل حديث حتى حديث الحب والهوى والهيام .

كرامة : إن ظني لم يخب ؟ إذن الأمر غاية في الخطورة . هات ما عندك تكلم ولا تبتئس .
شويل : " يعود له بعض تردده ثم قال : " أخشى أن أفقدك يا كرامة ، وأنا يدور في نفسي صراع رهيب لا أعرف كيف ستكون نهايته وكيف أحسمه ، أنا خائف يا كرامة خائف.." ثم يستدير عنها واقفاً ويعقد يديه إلى صدره وهو يفكر " .
كرامة : " تتابعه قائلة " شويل الحبيب .. أرجوك اشرح لي الأمر ، أخبرني ما هو هذا الأمر الخطير ، علني أساعدك في حل عقدته .
شويل : " يستدير نحوها بشكل فجائي وتظهر عليه كل علامات الحب والاستعطاف " كرامة ماذا أقول لك أتصدقين إذا قلت لك يا كرامة أنك أنت عقدة ها الأمر الخطير ..
كرامة : " وقد فوجئت وفغرت فاهاً دهشة واستغراباً قائلة " أنا .. ؟ وكيف ؟؟
شويل : أجل أنت ، أنت يا كرامة .. وهل غيرك يجعلني هكذا بادي الحيرة مستطير اللب والجنان ؟
كرامة : شويل أرجوك لقد جعلتني أعيش في دوامة لها أول وليس لها آخر ، أفصح أرجوك بل أسرع .
شويل : أيتها الحبيبة كرامة .. أرجوك أن تكوني آذاناً صاغية وقلباً مرهفاً وعقلاً واعياً راجحاً .
كرامة وقد تهيأت جيداً وأظهرت كل تحفز واستعداد وبدت كل إمارات الجدية والإصغاء على تقاطيع ذلك الوجه الحلو الجميل .
كرامة : تستطيع أن تبدأ وها أنا تهيأت كما أردت .
شويل : " عاوده التردد والارتباك وبدت الحيرة على محياه ولكن انتزع هذه الكلمات القليلة من حلقه وكأنه يحدث نفسه بصوت خافت لا يريد أن يسمعه أحد " أريد أن أقل.. أريد .. والله لا أعرف كيف أبدأ !
كرامة : يا شويل يا حبيبي بربك ابدأ ، قل وارحمني من بلبالي إن قلبي يكاد يتمزق ، بل ويقفز من بين ضلوعي ، لقد أضنيتني وعيل صبري .
شويل : " وقد استجمع كل شجاعته وأجابها بكلمة واحدة ، ولكن بقوة وتصميم " " إذن اسمعي وافتحي أذنيك " لقد أسلمت ..
كرامة : " تجفل وتظهر عليها الدهشة والاستغراب وتتراجع إلى الوراء خطوة وتتساءل كأنها لم تسمع ما قال بالضبط " ماذا ... ؟؟ ماذا قلت .. ؟؟
شويل : " الآن بشجاعة وقولة أكثر " نعم يا كرامة لقد أسلمت ..
كرامة : تعني .. تعني إنك تابعت دين ذلك القرشي ..
شويل : أجل لقد تابعت رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم - .
كرامة : تتقدم نحو شويل وتقابله وتتسارع الأسئلة على فمها ، كيف حدث ذلك ؟ ومن غرر بك و .. ؟

شويل : " محتداً " أرجوك كرامة لم يغرر بي أحد ، بل قولي من الذي هداك إلى دين الحق دين المحبة والإخاء ، دين المحبة والقوة دين التحرر من نير الاستعباد للشهوات والآثام ، نير الاستعباد للفرس والروم ، دين الله إلى الناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، دين ..
كرامة : " تقاطعه قائلة " ومع ذلك لم تجب على سؤالي من الذي .. ؟
شويل : " يقاطعها " مهلاً يا كرامة : مهلاً ، سأحدثك عن كل شيء ، وكيف هديت إلى الدين الحق . " وهكذا حدثها شويل القصة كاملة ، وبعد أن أنهى قصته لها كانت كرامة لا تزال في حالة ارتباك ووجوم لا تدري بماذا تجيب وبماذا تقول .. " كرامة حبيبتي أرجوك أن تسمعيني وتطرحي جانباً ثقل العادات والتقاليد التي أراها تغرقك في لجاجة الشرك ، وتكون سبباً في فراقنا وكأنما لسعت بعقرب فأجفلت وقال : " ماذا تقول ؟ فراقنا .. هل قلت فراقنا ؟ وكيف يجرؤ قلبك وينطق لسانك بهذه الكلمة المقيتة .
شويل : " عاد إلى الرجاء والاستعطاف " كرامة أرجوك إنني حرص على إسلامك حرصاً يفوق حرصي على روحي .. ثم ألم تسمعي يا كرامة بأن العراف والكهان يقولون أن هذا الزمان أظل نبياً .
كرامة : أجل سمعت .
شويل : أو لم تسمعي أنه عربي يخرج من أرض العرب ؟
كرامة : نعم سمعت ، وكنت أظن أنه يكون من غير قريش .
شويل : وكيف يكون من غيرهم ؟ ألم تسمعي بأنه سيكون من نسل إسماعيل وعلى دين إبراهيم ؟ وهذا النبي كما قد عرفت من إسماعيل عليه السلام ومن أهل البيت العتيق .
كرامة : بلى أعرف أنه من مكة ومن قريش .
شويل : أو تعرفين أيضاً مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل .
كرامة : أجل لقد سمعت أنه هاجر إلى هذه الأرض التي تدعى يثرب والواقعة بين الحرتين .

شويل : لاحظ شويل أن حدتها قد هدأت وأن ارتباكها قد تلاشى أو كاد كما لاحظ بأن أسارير وجهها قد انفرجت وكأنها قد بدأت تقتنع بصواب تفكيره ، فطمع بإسلامها فرأى أن يلجأ إلى الحب وأحكامه ، والقلب وشجونه علّه يجهز على آخر حصون مقاومتها وقلاع خرافاتها ، فقال لها : " كرامة حبيبة القلب أرجوك أن تحسمي هذا الأمر الآن وتتخلصي من آرائك وما يكبلك من تقاليد بالية وأوهام كاذبة لا تقوى على مجابهة الحق ولا الوقوف في وجه نور الحقيقة الدامغ ، دع الشعاع الوهاج شعاع الإيمان ينفذ إلى قلبك وفكرك لينير لك الطريق كما أنارها لي . أرجوك أن تحسمي الأمر الآن حتى يلتقي قلبانا على حب الله ورسوله كما التقيا

على حبنا ، أرجوك لا تفصمي عرى المودة والحب ولا تضعي السدود والعراقيل في وجه سعادتنا ، كرامة إني أدعوك إلى سعادة الدنيا والآخرة." كرامة مطرقة بأسى وبادي عليها الفكر العميق تنصف ولا تجيب ." ها حبيبتي أجيبي أرجوك ، لقد وضح لك الأمر ، وهي كلمة واحدة انطقيها وتزول كل السدود .
كرامة : أرجوك يا شويل ، دعني أفكر . إني أصبحت في دوامة تكاد تغرقني" وتعود إلى صمتها ووجومها " .
شويل : إذن أنت لا تريدين " ويستدير لها قائلاً " على كل حال ما علي إلا البلاغ .
ويمضي من عندها كأنه يهم بالانصراف " ابتعد شويل قليلاً ناحية جواده .
كرامة : " تنتبه فجأة على ذهاب شويل ، تلحق به وتناديه : " شويل شويل أرجوك اسمع مني هذه الكلمة إنها لصالحنا .
وهنا طمع شويل مرة أخرى بإسلامها فوقف حتى لحقت به .
شويل : أرجو أن تكوني قد حسمت الأمر .
كرامة : أرجوك يا شويل لا تغضب مني أعدك بأنني سوف أفكر جدياً بالأمر ، وأرجو أن يكون قراري لصالح حبنا ، ولكن ألا تمهلني بعض الوقت فقط ، بعض الوقت.
شويل : إنني أمهلك ، ولكن اسمعي مني هذه الكلمة الأخيرة قبل انصرافي ز إن الكفر فلاة مضلة والأحمق من تركها تضله وأمامك الحجة البيضاء ، فأرجوك أن تعبري برزخ الأوهام والعادات وهو برزخ جد ضيق لو تعلمين ، وإن بدا صعب الاجتياز وعر المسالك جم الصعوبات ، وأنا ممهلك كما طلبت ، وكل الوقت معك لتفكري . والآن أستودعك الله .
كرامة : مع السلامة يا شويل .
تعود كرامة لتجد صفية بانتظارها متلهفة متسائلة عن هذا النقاش الحاد ، وهذا اللقاء الذي اختلف عن كل ما عهدته بينهما من لقاءات .
كرامة : آه لو تعلمين يا صفية ، إنه قد جاء بأمر جد خطير تندك الجبال من ثقله" وتحدث صفية الحديث كله" .
صفية : كان الواجب عليك يقضي أن تقرري ولا تدعيه يذهب على مثل الحال التي ذهب عليها .
كرامة : إنني مشتتة الفكر يا صفية ، وقد فاجأني حتى لم أعد أستطع أن أعرف الموقف الذي يجب علي اتخاذه . والله إني حيرى بين حبي له وما يدعوني إليه ، وبين الوالد والأخ والعشيرة . القلب يقول أسرعي والحقي به ولو إلى حتفك ، ولكن لا تزال بي خشية من الأهل والعشيرة تكبل قدمي بأصفاد لا أراها وأشعر أنني لا أستطيع منها فكاكاً . إن لساني كأنما قيد بقيد سحري لا يريد أني تحرك ولا ينطق فأتراجع خائفة مذعورة مرتجفة ، إنني خائفة يا صفية خائفة بل حيرى ، يا إلهي ما هذا الموقف الصعب الذي وضعت فيه . أشعر أنه قرار حاسم وخطير وسوف يقلب حياتي رأساً على عقب . ما رأيك يا صفية ؟

صفية : حمداً لله على أنني لم أقف هذا الموقف الصعب " ثم تهز كتفيها وتواصل كلامها " على كل حال لو كنت أنا لتابعت حبيب القلب والروح وألقيت ما دون ذلك دون تفكير . وتنطق الجملة الأخيرة بشكل يدخل في روع السامع أن هذا الموقف هو الصحيح وما دونه هو قبض الريح " .
كرامة : على كل حال أمهلني ودعيني أفكر في هذا الأمر .
صفية : كما تشائين .

الفصل التاسع

في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم الذي دعا فيه شويل كرامة إلى الإسلام ذهب مولى شويل إلى عدي وأخبره خبر شويل وكان ما قاله إلى عدي : إن مولاي عاد هذا المساء من موعد مع كرامة وقد كان عصبي المزاج ثائراً يأمر وينهى بدون هدف إذ يرفض ما كان قد طلبه قبل قليل سائلاً من الذي طلب هذا وذاك وبين الحين والآخر يذهب في إطراقة عميقة ليفيق بعدها إلى الأوامر التي لا هدف منها . ولما سألته والدته عن سبب بلباله وتشتت خاطره وتوزع فؤاده ، أجاب والدته أنها رفضت ،ولما استوضحته الخبر أخبرها أن كرامة قد رفضت دعوته ومتابعته ، وكما أظن أنما قد اختلفا ها إذا لم تطرده شر طردة ، هو لم يقل هذا ، ولكن هكذا أظن لما رأيته منه ومن تصرفه . سُر عدي أيما سرور ونفح الخادم مبلغاً محترماً من المال وطلب منه أ، يشدد الرقابة على شويل حتى لا تخفاه شاردة ولا واردة ويعلمه بكل حركاته وسكناته ، وبعد ذهاب الخادم جلس عدي منشرح الفؤاد بادي السعادة وهو يحدث نفسه : والآن يا ابن أم شويل ، لم يبق إلا أن أضربك الضربة الأخيرة لأقضي عليك مرة واحدة وإلى الأبد .

وأخذ يمني النفس بالأحلام العذاب قائلاً : والآن بعد أن طردته كرامة شر طردة لا بد وأن قلبها بدأ يتخلص منه إلى الأبد أيضاً ، ثم ضحك ضحكة عالية قائلاً بصوت مسموع : وهكذا خلي لك الجو يا عدي لتفوز بحبيبة القلب وقرة العين دون منافس ولا إزعاج ، وخصوصاً أن أخيها عمرو طوع بناني وخاتم بإصبعي .

بكر عدي في ذلك اليوم بالذهاب إلى قصر عمرو وهو يكاد يسابق الريح وقلبه يرقص في صدره طرباً حيث ظهر أن ساعة الخلاص من شويل قد دنت ، وعند دخوله القصر وبعد أن يستأذن على عمرو .

عدي : عمت صباحاً أيها الصديق العزيز .
عمرو : أهلاً عدي أهلاً .. مواصلاً كلامه ، ولكن قل لي ما الذي جاء بك باكراً يا عدي ؟ عسى أن يكون خيراً ، وإن كان مجيئك هكذا باكراً يوحي بأن أمراً خطيراً قد جاء بك .
عدي : أجل هو كذلك ، بل وجد خطير .
عمرو : أسرع ، ما هو هذا الأمر الخطير ؟ لقد أقلقتني .
عدي : لقد حانت فرصة الانتقام ، ولن يفلت مني هذه المرة .

عمرو : عمن تتكلم ؟ أتقصد شويلاً ؟؟
عدي : وهل هناك غيره ؟ أجل إنه هو .. وقد صنعت له"وأيم الله" خية لا يفلت منها المهر الأرن .
عمرو : ويحك يا عدي ، إن الحقد يعشعش في حنايا نفسك وبين الضلوع ، ولكن ما هذه الخية التي حكتها له ؟ لقد شوقتني .. انطلق بسرعة :
عدي : أتعلم أن ابن الماكرة قد صبأ .
عمرو : يفتح فمه دهشة ويجيب ببطء " ماذا قلت ؟ صبأ ؟
عدي : أجل لقد صبأ وتابع ذلك القرشي ..

عمرو : أتعني .." ولا يريد أن يتم كلامه ، ويحك عثنونه بتمهل" أتعني أنه تابع الذي يدعو نفسه نبياً ويدعو إلى ترك دين الآباء والأجداد ." ثم يضحك ضحكة المنتصر " فعلاً إنها خية لا يفلت منها ، ما تنوي أن تفعل حتى نرتاح منه ؟
عدي : الأمر يا صاح في غاية اليسر والوضوح . كل ما علينا أن نذهب ونخبر الملك إياس بن قبيصة وينتهي الأمر .
عمرو : يا لك من ماكر لا يُقدر عليه ، ولكن قل لي كيف عرفت ذاك ؟
عدي :" ينظر إليه نظرة كلها مكر وخبث قائلاً" أيسأل عدي مثل هذا السؤال ؟؟ لا أبقاني الله إن خفي علي شيء مما يدور في الحيرة .
عمرو : فعلاً إنك شيطان مريد أو تكاد . والآن هيا بنا" مستعجلاً " .
عدي : مهلاً مهلاً حتى يحين موعد جلوس الملك إلى الناس ، قل لي ما هي أخبار كرامة ؟ أرجو أن تكون بخير .
عمرو :" يجيب مقتضباً" بخير ، وإن رأيتها أمس ليست على ما يرام ، كأنها تعاني من شيء ما .
عدي : ألم تسألها ما الذي يقلقها ؟
عمرو : لا لم أشأ ذلك حتى لا أحرجها .
وهنا لمح عمرو كرامة قادمة ،ولما رأت عدياً أرادت أن تعود أدراجها ، ولكن عمرو ناداها :
عمرو : كرامة كرامة ، ما لك عدت ؟
كرامة : لا شيء ، فقط تذكرت شيئاً وأريد أن أعد .
عمرو : أما تلقين التحية يا كرامة ؟
كرامة :" بصوت خفيض متوار " عمت صباحاً ،" قالتها وهي لا تزال تواصل سيرها".
عمرو : عمت صباحاً يا كرامة ، ولكن مهلاً مهلاً أريد أن أحدثك بشيء هام ." وهنا يغمزه عدي بطرف خفي أن لا .

كرامة : " تلتفت بوجل وتلهف ماذا .. أمر هام ؟؟
عمرو : لا شيء ، لما هذه اللهفة ؟ فقط أردت أن أسألك عن سبب هذا الشحوب والكدر البادي على هذا المحيا اللطيف ..
كرامة : فقط .. هذا هو الأمر الهام ؟ إذن أقل لك بأنني على خير ما يرام " وتريد أن تواصل السير " .
عدي : لما هذه العجلة يا ابنة العم ؟ معقباً ، وأرى كذلك أن جفنيك متورمين ، أرجو أن لا تكوني سقيمة .
كرامة : لا لست مريضة " أجابته بتوتر وغضب " فقط أعاني من الألم عندما أراك .
عدي : وي إلى هذه الدرجة تبغضيني ؟! إذن إذا لم تكوني مريضة فأنت لم تنامي ليلة مريحة " قالها بمكر وشماتة " .
كرامة : هذا ليس من شأنك ، ثم أرجو أن لا تكثر من ثرثرتك الفارغة .
عدي : إني لا أريد إلا خيرك وراحة بالك .
كرامة : راحة بالي ؟؟ .. " تجيبه بسخرية واستهزاء " وخيري أيضاً أليس كذلك " وتلحقها بضحكة ساخرة " والله لم أعرف التعب إلا بعد أن بدأت تعكر علينا صفو الحياة.
عدي : ولكن أي والله ، وإن كنت لا تبالين بي الآن ، ولكن عما قريب ستثبت لك الأيام بأنني لا أسعى إلا لخيرك وخير أخيك عمرو .. أليس كذلك يا عمرو ؟ ما لي أراك قد صمت ؟
عمرو : أجل أجل يا كرامة ، إن عدياً صديق مخلص لنا .
كرامة : أجل إنه شيطان بلباس صديق ، وهل الشيطان يسعى للخير .. ؟
عدي : " يتجاهل إجابتها ويسألها بدوره " أتذكرين ؟؟ لقد كنت حذرتنا من ذاك القرشي ومن صابئته .
كرامة : أجل .. ؟ " وهنا يعلو وجهها بع الاضطراب والشحوب ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت " أجل وما الذي دعاك إلى مثل ها القول الآن ؟
عدي : لا شيء ، فقط أردت أن أقول لك أن أمره أصبح قريباً جداً من الحيرة .. ونم يدري لعله دخلها أيضاً .
كرامة : " ازداد انقباض صدرها وشعرت كأنما خنجراً قد انغرس في قلبها وحاولت جاهدة أن تخفي اضطرابها ووجلها وأجابت " على كل حال هذا الأمر لا يهمني الآن وانصرفت مسرعة " ..
عمرو : كرامة .. كرامة ما بك تريثي قليلاً .
كرامة : عمرو .. أرجوك دعني أذهب ، لقد مللت وكرهت حديث هذا الألعبان وتنصرف .
عدي : دعها دعها يا أخي ، ألا ترى أنها تعبة الآن ؟ وبعد انصراف كرامة يلتفت عدي إلى عمرو قائلاً : هيا بنا للذهاب إلى حيث يجلس الملك .

صفية : ما لي أراك مقطبة الجبين عابسة الوجه ؟
كرامة : " تزفر زفرة حرى وتجيب " ألا تدرين ؟؟ من ذاك اللعين إنني أكرهه ، لا بل أمقته " قالت الكلمة الأخيرة وهي تصك على أسنانها كأنما أرادت أن تقطعه بها إرباً " .
صفية : من عدي ؟ وأنا كذلك لا أطيق رؤيته ، ولكن ما سبب كل هذا الغضب ؟
كرامة : إن اللعين مع أخي الآن، وقد كلمني أتدرين ؟؟ إنه يلمح بعلاقتي بشويل بل ويكاد يصرح .
صفية : يا للعين ، ولكن كيف عرف ؟
كرامة : وليس ذلك فقط ، بل أحسست من كلامه كأنه يعرف أن شويلاً قد أسلم .
صفية : يا ويلي ، أرى وكأن المصائب قد ادلهمت .
كرامة : أجل يا صفية ، أجل كم أنا خائفة على شويل من مكائد ذلك الماكر .
صفية : اطمئني لا تخافي على شويل ، ثم إن شويلاً ليس وحيداً ي هذه الديار ، أنسيت ذلك .. ؟
كرامة : أجل لم أنس ، وأعرف أنه ليس وحيداً ، ولكن ما عساه يفعل مع ذلك الماكر إذا أخبر الملك بحقيقة الأمر .
صفية : يا للمصيبة إن فعلها .. " وبعد إطراقة قصيرة من صفية " قالت : " فعلاً إنه أمر خطير ، وقد أصبحت خائفة مثلك على شويل .. ولكن لما هو هكذا قد جبل من الشر وحده ، بل وكأنه الشيطان بلحمه وشحمه .
كرامة : رحماك اللهم .. أرى وكأن مصالحهما قد التقت كلاهما ، يريد أن يزول شويل من الطريق أخي بحدقه الدفين القديم والجديد وعدي طمعاً في أن ينالني . أف لهما .. وإني لأرجو أن يحب مسعاهما .
صفية : يا للحقير ، إنه لن يفوز بقلامة أظفر منك ، وسأفديك بدمي وروحي . والآن دعيني أنظر إليهما . وتذهب لتطل عليهما فتراهما قد غادرا المكان .. لقد ذهبا .
كرامة : " بوجل " ذهبا ؟؟ لا بد وأنهما يدبران مكيدة ، ويا شر ما يدبران .. أخشى أنهما ذاهبان إلى مجلس الملك حيث حان ميقاته ودنت ساعته .
في صباح ذلك اليوم كان الملك إياس بن قبيصة جالساً في ديوانه وقد جلس حوله كبراء القوم وأمرائهم ، وكل قد أخذ مجلسه وعرف مكانه . في أثناء ذلك دخل عمرو وعدي وقد بدت عليهما آثار الاضطراب والاهتمام ، فألقيا التحية وانحنيا للملك وعندها يشير لهما الملك أن اجلسا ، وفعلاً فقد ذهب عمرو إلى حيث مجلسه فجلس ، أما عدي فقد استمر واقفاً وقد بدا عليه أنه لا يريد الجلوس مما لفت نظر الملك ، وهنا سأله الملك لما لا تجلس يا عدي ؟؟
عدي : أيها الملك المبجل ، ملك العرب جميعاً ، كيف تريدني أن أجلس ووراءي خبر خطير وشر مستطير . يزلزل العروش ويدك القصور .
إياس : " وقد بدا عليه الاهتمام الشديد وجلس متحفزاً " ما هذا يا عدي ؟؟ ويلك

وأي شر هذا صبحتنا به ؟
عدي : بأبي وأمي أنت أيها الملك ، ما أردت أن أغضبك ولا أن أستثيرك ، ولكني وجدت من واجبي أن أحذر مولاي الملك من ذلك الشر الداهم ، ألا اعلم يا رعاك الله أن الصابئة قد دخلوا عاصمة ملكك يدبرون ويمكرون .
وهنا دهش القوم أيما دهشة وأخذوا ينظرون إلى وجوه بعضهم البعض ، وكأن على رؤوسهم الطير ، وهنا يقطع الملك حبل الصمت الرهيب ويصيح بغضب شديد :
إياس : من هؤلاء المجرمين يا عدي ؟ ويلك إني أتمزق غيظاً أفصح وأوجز .
عدي : " بتردد ماكر وكأنه وجل من ذكر الاسم " إنه مولاي .. إنه ..إياس : انطق ثكلتك أمك ولا تتردد .
عدي : إنه يا مولاي فارس هذه المدينة الذي شرفته بتقليده سيفك وتنصيبه فارساً لعرب الحيرة والضاحية .
إياس : " يصيح بصوت مغيظ كخوار ثور ذبيح " ويل تقصد ؟؟
وهنا يسمع الحضور وهم يتهامسون بدهشة وعجب شويل شويل .. ؟؟؟
عدي : أجل يا مولاي ، قد صبأ وتابع ذلك القرشي ,خان الأمانة وأخشى أن يكون السبب في هدم هذه المدينة والقضاء عليها وعلى أصحابها .
إياس : بل يخسأ الحقير الويل له ولما يخطط .
الحضور يتهامسون وتظهر عليهم علامات الدهشة والغضب .
أبو عمرو : " بهدوء ووقار شديدين على رسلك أيها الملك بأبي أنت وأمي ، ما هذا الغضب الجامح الذي ألم بك ؟ هو نعليك يا سيدي ، ما شويل إلا أحد أبنائك ولا يعصي لك أمراً ، ثم إن شويلاً سيد من سادات الحيرة و ..
إياس : " مقاطعاً لأبي عمرو باستنكار " يقول سيد من سادات الحيرة .. ؟؟ ويدبر المكائد لأهلها ، ثم ألا ترى أنه قد صبأ ، وترك دين الآباء والأجداد .
أبو عمرو : أجل يا سيدي إنه منا حيث علمت ولا أظنك تريد أن تنقسم الحيرة وعرب الضاحية ويدب بيننا الفرقة والتناحر " وسكت قليلاً ليرى ردود فعل القوم لما يقول ، ولما رأى أنه قد استطاع أن يصل إلى عقولهم ويطامن من ثورتهم واصل كلامه قائلاً "أرى أن تأخذه بالحلم والروية ،وأظن أننا لم نعدم الوسائل التي نجعله بها يعود عن غيه .
الحضور : نعم الرأي رأيك يا أبا عمرو ، عم الرأي .
أبو عمرو : " يواصل كلامه " أرى أن تستدعيه إلى مجلسك وتعرف حقيقة الأمر .
عدي : " بمكر وخبث " حقيقة الخبر ما أخبرتكم به .
أبو عمرو : اسكت يا عدي ، ودعنا من أخبارك وأقوالك ودعني أتم حديثي .
إياس : أجل يا عدي ، دع الشيخ يتم حديثه .

أبو عمرو : يا سيدي ما قلت ، إنه كأحد أولادك ، وأرى أن تأخذه بالروية والحكمة .

قبيصة بن إياس : رأي جيد من أبي عمرو ، ولكن إن أبي وعاند وهو عنيد وصعب المراس كما تعلم .

أبو عمرو : أرجو أن يرعوي ويترك هذا الدين ، ولكن إن أبى عندها يرى الملك العظيم فيه رأيه ، وإن كنت أصر بأن لا يقسوا عليه إذا كما تعلمون أن شويلاً له أهل وعشيرة ، وبينهم من حضر هذا المجلس ، ولا نحب أن يكون سبباً لإثارة الأحقاد والترات بين عرب الحيرة .
عمرو : ولكن يا أ[ي خالف الأهل وعارض الناس وسفه الأحلام . أما أنا فرأيي أن يجلد أو أن يصلب ولا تأخذنا به رحمة ولا شفقة .
وهنا صدرت همهمات وهمسات من الحضور تدل على عدم الموافقة على هذا الرأي مظهرة خطأه .
أبو عمرو : يا ولدي ارض للناس ما ترضاه لنفسك ، وشويل له أهل يمنعونه ويقضون من أجله . وأرى أن تترك أمره إلى الملك الذي له من الحكمة وبعد النظر والتجارب ما يبعد عنا أسباب الفرقة وشبح الخلاف .
إياس : رأي أبو عمرو رأي حكيم وصائب ، " ويصفق بيديه للحراس فيدخل أحد الحرس ويأمره بأن يحضروا له شويلاً .
ذهب الحارس لاستدعاء شويلاً وهناك وجده مع صاحبيه سعيد بن مرة وعتيبة بن النهاس وبعد أن حياهم أخبر شويلاً أن الملك قد أرسل في طلبه إلى مجلسه ، وأنه ينتظره في ديوانه . فقال شويل للحارس حباً وكرامة ، اذهب وهنا أنا على أثرك ، وبعد ذهاب الحارس التفت شويل إلى صاحبيه سائلا :
شويل : ما السبب يا ترى لهذه الدعوة ؟؟
سعيد : أيكون قد علم ؟
عتيبة : ولكن ممن يعلم ؟
شويل : أتظن أن أمراً كهذا يخفى والحساد كثر كما تعلمان .
سعيد : نذهب معك ونرى جلية الأمر وحقيقة الخبر .
عتيبة : وإن كان إسلامنا هو السبب ما نصنع ؟
شويل : نرى ونسمع أولاً ، ولكل حادث حديث .
سعيد : اجل ، ولن نضع الدنية في ديننا أو نتخلى عن شويل .
عتيبة : أجل لن نتخلى عنك يا شويل ، سر ونحن معك إلى آخر قطرة من دمائنا .
شويل : شكراً لكما على هذا الوفاء ، ولكن اطمئنا إنني أشعر بثقة عالية بالنفس ، وإنني على استعداد لمواجهة ملوك الروم والفرس والعرب بهذا الأمر الذي أعزني الله به" مواصلاً كلامه" قائلاً : " ولله العزة ولرسوله والمؤمنين " يقولها بنبرة قوية مؤثرة طافحة بالإيمان والقوة .

سعيد وعتيبة : صدقت يا شويل صدقت ، ونحن معك ، هيا بنا هيا . ويذهبون .
يدخلون على مجلس الملك وقبل أن يحيون " لم يتمالك الملك نفسه " من مبادرة شويلاً بالسؤال .
إياس : لقد سمعت أمراً خطيراً يا شويل ، أرجو أن لا يكون صحيحاً .
شويلاً : " منتصب القامة ثابت الجأش مطمئن النفس رابط الفؤاد " يجيب على سؤال الملك بسؤال آخر " وأي أمر خطير هذا الذي تعني أيها الملك ؟ "
إياس : يقولون أنك صبئت وتابعت ذلك القرشي وكفرت بدين الآباء والأجداد .
شويل : إنني لم أصبأ أيها الملك ، ولكنني قد أسلمت .
إياس : يا للقحة .. ؟؟ أتجيب هكذا بكل بساطة ؟
شويل : أجل ، إنني لم أصبأ أيها الملك ،ولكني قد أسلمت لله رب العالمين .

" وهنا تصدر همسات وهمهمات مع ظهور علامات التعجب والاستنكار من بعض الحضور " ، متابعاً حديثه ، وقد اتبعت ذلك النبي محمد بن عبد الله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا رأي رأيته واقتنعت به .
الملك إياس : " مستنكراً " تقولها دون خوف أو وجل وكأنك لم تأت شيئاً خطيراً .
شويل : أجل أيها الملك ، إنني لم آت شيئاً أخشى منه ولا معرة تلحق العار بي ، وإنما هو رأي رأيته وأنا حر في ذلك أعمل ما يحلو لي .
إياس : ولكنك قد خالفت الأهل والعشيرة وموروث الآباء والأجداد ، لا بل جلبت لهم العار وحقرتهم .
شويل : لم أحقر أجداً .. ولكن نظرت بالأمر وفكرت فيه فوجدته خيراً كله ... فيه خير الدنيا والآخرة ، فمن أحب آمن وأسلم ، ومن أبى فله دينه ولي ديني ، ولن أرجع عنه بعد أن ذقت طعم الحقيقة وحلاوة الإيمان .
إياس : " مستغرباً ومتعجباً " لقد سمعت أن صاحبك هذا يعد قومه وعشيرته بافتتاح فارس وأرض الروم .. أي تبجح هذا .. وهل هناك قوة تقدر على مولاي كسرى أو على هرقل ملك الروم ؟!
شويل : إن كان وعد فقط صدق .
إياس : وكيف ذلك وما هي قوته وأنت قد علمت قوة فارس وعظمتها وصولة الروم وقوة بأسها .
شويل : أجل أيها الملك ، إنك لا تعرف الإسلام وقوته في نفوس أتباعه ، إن له من القوة ما يدك الجبال الرواسي .
إياس : مستهزئاً .. وما هذه القوة التي تتبجح بها ؟ ومن له طاقة بكسرى ؟
شويل : كأن الملك لا يذكر أو لعله يتناسى موقعة ذي قار .
" وهنا يثور قبيصة ثورة عارمة صائحاً "
قبيصة ابن إياس : يا للحقير الجبان " لا أم لك " ، إنه يعرض بنا أيها الملك ، إن هذا المجنون يعرض بك أيها الملك " دعني أقطع رأسه " .

أما سبب ثورة قبيصة بن إياس تلك عند ذكر يوم ذي قار : إنه كان قائداً للفرس ومن سار تحت لوائه من العرب يوم ذي قار ، وأن بني شيبان ومن تجمع معهم من العرب قد تغلوا على جيوش فارس في ذلك اليوم بقيادة قبيصة " .
إياس : اهدأ يا قبيصة ... أنسيت أ، الرجل فقي حضرتي وحماي ...
شويل : " مواصلاً كلامه بعد أن هدأ وسكت قبيصة " .
أجل أيها الملك ، أرأيت كيف تغلب العرب على فارس في ذلك اليوم المشهود وهم متفرقون ، وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث قال" هذا أول يوم اقتصت العرب من العجم وبي نصروا" ، ألا ترى ، فكيف بهم بعد أن يوحدهم الإسلام ويتبدل فرقتهم وحدة وضعفهم قوة ومنعة وذلهم عزة ونصر . ولا شك لدي أنهم سيظهرون على فارس والروم.
إياس : لقد تماديت كثيراً في لجاجتك يا هذا ، وأوسعت لك صدري كثيراً ، ولولا مكانك منا من حيث قد علمت لأمرنا بقطع هذا الرأس العنيد الآن ، ولكن أقول لك : أن اخرج عني في ثلاثة أيام لا يراك أحد في الحيرة بعدها ومن رآك بعدها فدمك مهدور كما ويخرج معك من أراد من عشيرتك الأقربين .
بعد الأسود العجلي : إنه أذل وأحقر من أن يخرج معه أحد ، ولولا حلمك قد وسعه أيها الملك لسفح دمه أمامك الآن .
عتيبة بن النهاس العجلي : بل أنت الأذل الأحقر يا عبد الأسود .
عدي : يا سيدي الملك إنه يستحق القتل لا الرحمة والعفو .
سعيد : خسئت يا فاجر مثلك من تقطع رأسه .
عدي : بل أنت الذي يخسأ وأيم الله لولا وقوفك بين يدي الملك لثكلتك أمك الآن .
ويمد يده إلى قبضة سيفه مهدداً ... فيستعد سعيد كذلك وقد وضع يده على قبضة سيفه ولكن ...
أبو عمرو : " في صوت هادئ حازم" يقول : يا عدي لا تزد النار اشتعالاً ونرضى بما قال الملك ..
إياس : اهدؤوا ميعاً وقد قلتما أريد وأصدرت أمري فليخرج من الحيرة وهو آمن لثلاث أيام لا يتعرض له ولا يتطاول عليه أحد .
شويل : أجل أيها الملك ، سأرحل إلى حيث الأحبة إلى محمد وصحبه وموجهاً حديثه إلى صاحبيه " هيا بنا يا سعيد ، هيا بنا يا عتيبة "
فيجيباه معاً : هيا يا شويل ويخرجان معه بسرعة .
ذهب شويل وصاحباه يستعدون للرحيل واللحاق بالمدينة حيث مهاجر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بلغ كرامة الخبر أن دم شويل قد أهدر بعد ثلاث أيام ، فوقع عليها الخبر وقوع الصاعقة وانتابتها الهواجس والأفكار المرعبة وأصبحت حيرى وفؤادها هواء لا تدري ما العمل ، وقالت وهي تحاور صفية :
كرامة : والله يا صفية لا أدري ما العمل الواجب اتخاذه تجاه هذا الموقف العصيب

الذي وضعتني فيه المقادير .
صفية : بالعكس إنني أراه واضحاً تمام الوضوح ، عليك بطريق القلب والهوى ، ولن تندمي .
كرامة : " وقد اكتسى وجهها بغلالة من تهجم وفكر عميق " .
لم أعهد فيك يا صفية مثل هذا التسرع والتهور في الجواب والمشورة . ثم إنك تعلمين إنني لم أصل بعد إلى قرار قاطع ، ولا أزال حيرى بين شتى الأفكار والهواجس . ثم أنسيت ذلاك اللعين الذي لم يترك لي الوقت الكافي للتفكير ؟؟!!
صفية : لا لست متهورة ولا متسرعة كما تزعمين ، وكذلك لم أنس ذاك اللعين عدي . بل إنني أرى أن لا مجال للتفكير والهواجس كما أسلفت لك ، ارم كل شيء وراءك ظهرياً وتابعي قلبك وحكم الحب والهوى .
كرامة : لنفرض أنني سمعت رأيك وأخذت بمشورتك ، فكيف العمل وهو سيغادر ويرحل في ثلاثة أيام ؟ كما أنك يا صفية تطلبين مني أن أمشي خطتين لا خطوة واحدة وأحلاهما مر . إحداهما مفارقة دين الآباء والأجداد والأخرى : مفارقة مرابع الصبا ومراتع الشباب والهوى .
صفية : يا حبيبتي الحب الخالص والهوى العميق تهون عليه كل الصعاب وتذلل له كل المخاطر والآلام .
كرامة : لا أزال أرى أنك متسرعة ، لا بل متهورة في هذا الرأي ، ولم أعهد بك مثل هذا الرأي . ثم على فرض أنني تابعته على دينه ، فكيف أخرج معه بعد أن انكشف أمره ؟
لا .. لا أستطيع ، وأين أنا مما سوف أجلبه لأهلي وقومي من عار وفضيحة .
صفية : دعي هذا الأمر لي أرتبه كما أشاء .
كرامة : قلت لك لا ، ثم أتراك قد نسيت أن هذا اللعين عدي وأخي عمرو قد سدا علي كل المسالك والدروب ، وأنهما يتربصان بويل الدوائر ، وخروجي معه على فرض أنك رتبته سيكون سبباً وجيهاً لتأليب القوم عليه ومطاردته لحين القرض عليه وقتله ، وقد يقتلوني كذلك معه .. لا لا يا صفية إنها كارثة إنها مصيبة ، آه من اللعين عدي ، لقد استطاع بمكره ووشايته بشويل لدى الملك أن يفرق بيننا ولا سبيل إلى لقائه واجتماع الشمل ثانية أبدا " وعند هذه اللحظة من الحديث استعبرت دموعها وعلا نشيجها وبكاءها وهي تقول " يا رب ما هذه الجبال الرواسي

والعقبات الكؤود التي وضعت في طريقنا وأمام حبنا .
صفية : وقد رقت لحالها وتألمت لها ألماً شديداً وهي تهون عليها قائلة : ما تشائين أيتها الحبيبة كما تشائين ، هوني عليك هذه مشيئة الأقدار وتصريف الأيام ورب ضارة نافعة ، وإني لأرجو الله أن يكون بعد هذا العناء والعنت الخير الكثير .
كرامة : وأي خير هذا .. ؟؟ يا صفية .
" وازداد نشيجها وبكاؤها " هل هناك خير في فراق الأحبة ؟ وما يدريك قد لا نلتقي بعده أبداً ، محاولة أن تتمالك نفسها قائلة : " أتعرفين يا صفية بما أفكر الآن ؟؟ " .
صفية : بما تفكرين أيتها الحبيبة ؟
كرامة : أفكر بالذهاب إليه ومقابلته : ماذا ترين ؟
صفية : أرى أن لا تذهبي فتزيدي لوعتك وحنك وتحرقي فؤاده بنارك .
كرامة : ولكن كيف يرحل ؟؟ دون أن أودعه على الأقل ؟؟
صفية : يا كرامة ، أنسيت الذي قلته قبل قليل ؟؟ إنني أخشى أن يكون مراقباً وبالتالي سيكن لقاؤك به خطر على حياته ! ثم إنك لم تصلي إلى قرار وحتى على فرض أنك وصلت إلى قرار فما الفائدة .. ؟؟ إلا إذا تريدين الإمعان في تعذيبه وتعيب نفسك ، تجلدي يا حبيبتي ودعك وهذا اللقاء .
كرامة : إذن تذهبين أنت وتحت جنح الظلام وتخبريه الخبر ، وكذلك عليه أن لا يحاول مقابلتي هو الآخر خوفاً على حياته .
صفية : اطمئني لك هذا ..
كرامة : شكراً لك .. أخبريه كذلك أنني سوف أنتظره أبد الدهر والعمر كله حتى يعود وسيلقاني صابرة منتظرة .
صفية : أجل سوف أقول له كل هذا وأكثر من هذا ...
عندما حان موعد لقائه مع كرامة : ذهب إلى حيث يلتقيان ، فلم يجد شويل أحداً... انتظر هناك قلقاً متوتراً وه يدور حول نفسه متطاولاً بجسمه في جميع الاتجاهات عله يراها مقبلة ، ولما أعياه الانتظار وأمضه القلق والتوتر ولم تحضر ، عاد حزين القلب مكلوم الفؤاد ويشعر بغثيان ورغبة شديدة في القيء ، وكأن رحى طاحونة ضخمة قد ناء بكلكله على صدره فأثقله حتى كاد أن يكتم أنفاسه ويزهق روحه من بين جنبيه . وحتى ينتشل نفسه مما هو فيه ، أخذ يحدث نفسه بأحاديث شتى مبرراً عدم حضورها بكثير من الفروض والتأويلات ، سارحاً مفكراً بالأيام التي مضت والساعات الهنية التي قضاها معها ثم عسى أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أراد به خيراً من عدم مجيئها .
عاد إلى قصره ورأى استعدادات الرحيل على قدم وساق ، فما درى أيفرح

بهجرته وسفره أم يحزن لمفارقته مراتع الصبا ومرابع الشباب والحب ، فإذا غشاه الحزن والأسى عاد وتذكر دينه وإيمانه واستعان بإسلامه معللاً النفس بصحبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيعود إلى نفسه صفاؤها وهدوؤها ، وبينما هو على تلك الحال السالفة الذكر ساهراً ومفكراً لا يعرف كيف يقطع ساعات ليله الطويل حتى دخل عليه أحد خدمه يخبره بقدوم صفية .

شويل : حالاً دعها تدخل حالاً .

صفية : عمت مساءً أراك لا تزال مسهداً .

شويل : هاشاً باشاً فرحاً : أهلاً صفية .. أهلاً وسهلاً ، وشعر بفرح غامر وأن قلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه من الفرح والغبطة .. سائلاً صفية : ها .. ما وراءك ؟؟

صفية : أهلاً بك يا شويل صبراً سوف أخبرك .

شويل : صفية ... لماذا لم تحضر كرامة إلى حيث موعد لقائنا .. لماذا ؟" ارتفع صوته قليلاً وحاداً بعض الشيء" .

صفية : مهلاً مهلاً يا شويل حتى ألتقط أنفاسي أو حتى أجلس على الأقل ، وسوف أخبرك بكل شيء .

شويل : وهل أطيق صبراً كل هذا الوقت ! إن قلبي يكاد أن ينفطر من بين الضلوع .. بربك أسرعي ولا تطيلي .

صفية : لقد خافت عليك من غدرهم .

شويل : غدرهم .. ؟؟" باستغراب وتعب" ، ومن هؤلاء ؟؟ ليس هذا بعذر ؟ إنها تعرف إنني لا أخافهم ولا أحسب لهم حساب .

صفية : على كل حال فإنها بدأت تميل إلى هذا الدين الجديد .

شويل : بلهفة وشوق" ينهض متوجهاً نحو صفية" وكأنه يريد أن يمسك بكتفيها ها .. ماذا قلت ؟ .. هل أسلمت ؟ .. ماذا قلت ؟

صفية : بشيء من التردد لا هي لم تسلم .. ولكني بدأت أشعر بميلها إلى هذا الدين ، وإن لم تصرح .

يعود شويل على عقبيه متراجعاً أسفاً وهو يقول سامحك الله يا كرامة ، إني لا أريد لك إلا كل خير ، لا أريد لك إلا خيرا الدنيا والآخرة .. آه .. كيف حالها هي ؟

صفية : إنها ليست بأحسن حال منك .. على كل هي طلبت مني أن أبلغك قولها ..

شويل : ماذا تقول .. أسرعي أرجوك .

صفية : تقول لك كرامة إنها سوف تنتظرك أبد الدهر وطول العمر لا تريم عن حبك حتى تعود وأنت عزيز الجانب مرفوع الرأس .

شويل : شكراً لك يا صفية لقد سرني وأفرحني هذا النبأ الطيب وزودتني بكثير من الأمل والشجاعة والصبر ، أجل سوف أعود وأنا عزيز الجانب مرفوع الرأس ... ونقضي على هذه العادات البالية والمعتقدات الباطلة ، ويومها سيفرح المؤمنون بنصر الله .

صفية : الآن علي أن أعود قبل أن يفطن أحد إلى غيابي وأستودعك الله .
شويل : صحبتك السلامة يا صفية يا مرسال الخير ، وأرجو أن تبلغي كرامة بالغ حبي وخالص ودي ، وإلى لقاء قريب إن شاء الله .

بات شويل باقي ليلته وقد استقرت نفسه وهدأ باله واطمأنت نفسه على الحبيبة صنو الروح والقلب ، وبعد صلاة الفجر كان ثلاثتهم قد استعدوا للرحيل إلى المدينة المنورة حيث مقام الرسول ρ .

وهكذا نعم شويل بصحبة رسول الله ρ وحضر معه المغازي والفتوح ، وكان من الحاضرين حفر الخندق حول المدينة ، وكان من جملة الأصحاب الذين كانوا مع سلمان الفارسي ψ اللذين يحفرون الخندق ، وأثناء حفرهم اعترضتهم الصخرة التي لم يستطيعوا تحطيمها ، وعندها ذهب سلمان إلى الرسول ρ وأخبره أمر تلك الصخرة التي أعيتهم ولم تستجب لفؤوسهم ومطارقهم ، وهكذا ذهب الرسول الكريم يستطلع أمر هذه الصخرة التي أعيت رهط سلمان . ثم تناول عليه لأفضل الصلاة وأتم التسليم المطرقة بيده الشريفة وضرب الصخرة كما هو معروف للجميع ثلاث ضربات وفي كل ضربة يلمع فيها نور يضيء ما بين لابتي المدينة ومع كل حزمة نور تخرج كان عليه السلام يبتسم ، واستغرب أصحابه سبب ابتسامه وأخيراً أخبرهم : " إن أمته سوف تظهر على أعظم دولتين في زمانه ذاك ، وأنه عليه السلام كان يرى مع كل وهج نور يخرج قصور روما وفارس وقصور الحيرة ، وهنا استغل شويل المناسبة وطلب من رسول الله ρ يد كرامة وفعلاً وعده بها رسول الله ρ وهذه عظة وذكرى لمن أراد أن يتعظ أو أن يذكّر ويلقى السمع وهو شهيد . رسول الله ومعه أصحابه وهم في أشد حالات الضنك والخوف والهلع حتى كادت القلوب تبلغ الحناجر ، وظن المؤمنون بالله الظنونا . نعم في هذا الموقف العصيب والهول المهول نرى كيف تقف النبوة العظيمة ، رآها تقف وقفة الواثق المطمئن إلى الله ونصره سبحانه وتعالى ، نعم في لك الموقف العصيب استوهب شويل من رسول الله ρ كرامة والرسول وهبه إياها .. وهكذا اطمأنت نفس شويل وأصبح واثقاً من أنه راجع إلى الحيرة لا محالة ، وإن كرامة ستكون له وحده .

هكذا بعد رحيل شويل عن الحيرة مع صاحباه ودارت الأيام وظن عدي أن الزمن قد واتاه ، وأن الدنيا قد أقلبت عليه وأن الطريق إلى قلب كرامة ممهداً وسهلاً يخلو من العثرات ، ولا بد أن تكن كرامة " إن كانت تكن شيئاً من الحب لذلك المدعو شويل قد تسرب اليأس إلى قلبها ونفسها ، ولم يعد أمامها عذر أو حجة لترفض إذا تقدم لطلب يدها . مضى عدي يمني النفي الأماني العذاب وأنه لم يبق له منافس لدى كرامة ، وهكذا بدأ يتودد إلى كرامة وإلى وصيفتها ويحاول التقرب منهما ، ولكنها كانت تصده وتنهره كلما حاول التودد إليها ، ويظن أن هذا الصد ما هو إلا غنج الصبايا ودلال العذارى ، وما درى المسكين أن قلب كرامة مملوء بل ومترع بحب شويل ، وأنها تنام والأحلام تهدهدها بشويل وذكرى شويل ، وعندما تصحو يكون طيفه أول ما يمر بخاطرها وأمام ناظريها . ومضت الأيام بكرامة طويلة طويلة بطيئة ، فاليوم كالدهر كم هو مضن ومتعب الانتظار خصوصاً للعشاق ، وإن كان هناك شيء يجعلها تشعر أن الحياة يجب أن تعاش هو

ذلك الأمل الذي يراودها بعودة الحبيب الغائب شويل ، كما وعد ذات يوم وكانت كلما ازدادت ولهاً وولعاً بالحبيب الغائب كلما ازدادت كراهية وحقداً على عدي ، وفي بعض الواقف على أخيها عمرو إذ لا شك أنه كان لهما دور في بعاد شويل وهجره للديرة ومراتعها ومغانيها .

لاحظ أبوها شحوبها وامتقاع لونها وتغير حالها ، إذ أصبحت عصبية المزاج سريعة الغضب والبكاء ، تحب الوحدة والانفراد بنفسها ، وحاول والدها أن يعرف السبب له يخفف عنها ما بها ويساعدها ، ولكنها كانت تتعلل بالعلل والأسباب لتبرر لوالدها هذا التغير في حياتها ، وهكذا نرى الأب المحب لابنته يقف إلى جانبها إذا حاول أخوها أو غيره النيل منها أو إجبارها على ما تكره ، وكان أشد ما يخشاه أن يفقد ابنته يوماً من غير أن يستطيع أني قدم لها يد العون والمساعدة . لذلك أسبغ عليها كثيراً من العطف والحنان والدلال علّه ينشلها من وهدة الانعزال ومن هذا الوضع النفسي والصحي الذي وقعت فيه ابنته الغالية .

غابت الابتسامة عن وجه كرامة خبا بريق عينيها وانطفأ لألاء وجهها تحت سحابة كثيبة من الحزن والأسى ، وكأن الله سبحانه قد قيض لها صفية ، فهي الصديقة والمربية والوصيفة ، وكانت صفية تبذل قصارى جهدها ، وكل ما أوتيت من حيلة وقدرة إذ كانت تعرف السر وتعرف السبب لكل هذا التغير ، وهكذا أصبحت صفية لكرامة هي مركب النجاة وطوق الأمان ، وهي خزانة الود والحب ومستودع الأسرار التي تهرع إليها كرامة لتفرغ نفثات صدرها ولواعج هواها وطول انتظارها ، وكانت صفية لا تبخل عليها بالمواساة وتخفيف ما تجد من آلام مبرحة . كانت تبث في نفسها وقلبها الأمل والحب والقوة على الصبر وطول الانتظار أملاً في عودة الحبيب الذي وعدته أن تنتظره العمر كله وأبد الدهر ، وإن طال الزمان وغبر .

كانت هكذا هي حال كرامة في حالة نفسي تعيسة والهموم والآلام أطبقت عليها إطباقاً لا فكاك منه ، هنا ظن الماكر عدي أن الثمرة قد أينعت وحان قطافها ، لذا عليه أن يعجل بالقطاف قبل أن يذبل عودها ويجف فيه نسغ الحياة .

لذا نراه قد يمم شطره قصر أبيها على جواده ، وعند وصوله أسرع أحد الخدم فأخذ لجام الحصان من يده ليربطه ، أما عدي فقط واصل طريقه إلى القصر ووجد خادماً آخر رحب به وأدخله إلى قاعة الزوار والضيوف ، ثم أخبر عمراً وأباه بمقدم عدي .

جاء أبو عمرو ابنه عمرو بعد قليل من دخول عدي ، وبعد أن تبادلا التحية والسلام على عادة أهل ذلك الزمان أخذ كل واحد منهم مجلسه ، بدأ عدي مرتبكاً وجلاً يريد أن يبدأ الحديث ، ولكن تخونه الشجاعة والكلمات أن يفتح باب الحديث والغرض الذي جاء من أجهل ، ولاحظ أبو عمرو ذلك فقال :

أبو عمرو : مالي أراك يا عدي مضطرباً وجلاً ، وكأنك تريد أن تقول شيئاً .. أو لربما وراءك أمر هام .

عدي : ويجرض ريقه محاولاً أن يبدأ الحديث ، ثم عود إلى التردد والوجل وكأنما

لسانه قد أثقلته القيود وغابت عن خاطره الكلمات فلم ينبس ببنت شفه .
عمرو : ما هذا يا عدي ؟؟" باستغراب ودهشة" ما عهدتك إلا طلق اللسان ذربه يا عدي ... ما لي أرى الحيرة والتردد على محياك ، بل وكأنك أصبت بخرس مفاجئ .
عدي : أجل واله يا عمرو ، كأن الكلمات قد غابت عني ، فلا أعرف ما أقول ، ولا كيف أبدأ .
أبو عمرو : ما هذا يا رجل ، قل ولا تخشى شيئاً .. اعرض حاجتك وقل ما تريد قوله ولا توجل ..
عدي : نعم يا سيدي .. نعم .." فترة سكون" ... إنني .. إنني والله .. إنني انتظرت .. ثم ران الصمت الثقيل مرة أخرى .
عمرو : أكل يا عدي .. إننا كلنا آذان صاغية لك .
عدي : بعد هذا التشجيع من الأب وابنه عادت إليه بعض جرأته وقال مسرعاً وبصوت خفيض : " والله يا عمي إنني راغب بالزواج من كرامة" . الشيخ وولده دهشاً لما سمعا المطلب وخصوصاً الشيخ . وران عليهم صمت ثقيل ، ولم يردا على طلبه .
عدي : عمي الشيخ ، إنني واحد منكم ، وأنتم لي الأهل والعشيرة ،ولولا ذلك لما جرؤت أن أطلب يد ابنتكم كرامة ، أرجو أن تجب مطلبي ، ألم تسمع أيها الشيخ الجليل ؟؟
الشيخ : أجل .. أجل قد سمعت ما تريد ولكنك .
عمرو : أجل يا عدي لقد فاجأتنا بهذا الطلب ، ثم ما هذا الذي تقول ، ثم يتساءل ضاحكاً مستغرباً .. أنت يا عدي أنت تتزوج ؟ ثم يواصل الاستغراب والاستهجان .
عدي : بجد واهتمام عظيمين .. أجل يا عمرو ، أجل أنا أريد أن أتزوج ، وما إضرابي عن الزواج للآن إلا من أجل أن أفوز بكرامة ..
أثناء هذا الحوار ، كان أبو عمرو ساهماً مفكراً وقد مر بخاطره كم هو عدي ماكر ولئيم وداهية ، فخشي أ، جبهه بالرفض والصد أن يثير له ولابنه المتاعب التي هم في غنى عنها .. لذا رأى أن يلجأ إلى الحيلة والتسويف ..
عدي : يا عمي أراك ساهماً مطرقاً ، ألا تراني كفؤاً لكرامة ؟
الشيخ : العياذ بالله يا ولدي .. ما هذا الذي تقول ؟ أنت منا وسيد من سادات الحيرة وكفؤ لكل فتاة .
عمرو : أجل يا عدي ، أنت واحد منا وأنا موافق على مطلبك طبعاً بعد أن يأذن الوالد الكريم .
عدي : يبتسم عدي وهو يقول لعمرو : بورك فيك من صديق مخلص .. بورك فيك " يقولها وهو فرحان جذل والسرور باد على محياه" ولكنه لم يسمع الكلمة

الصريحة من الوالد الكبير .
أبو عمرو : موبخاً ولائماً ابنه .. لماذا هذا التسرع يا عمرو ، أنسيت أن أختك كبيرة وقد بلغت سن الرشد والإدراك من زمن بعيد ومشاورتها وسماع رأيها واجب ومحتم .
عمرو : " تراجع وقد شعر أنه تسرع فعلاً ، وقال وكأنه يعتذر على ما بدر منه" لا لا ما نسيت يا أبي ما نسيت أبداً ، ولكن حسبت أن كرامة سوف تقبل وتوافق .
عدي : " وقد انتابته الهواجس" يا عمي ، ولما الأخذ برأيها ما دمتما قد وافقتما ، فلا مجال إلى سؤالها ، بل عليها السمع والطاعة .
الشيخ : لا يا عدي ، لا" قالها بحزم وإصرار" ، أنا لم أعطك كلمتي ، وهذه حياتها ، فأنا كما ترى شيخ فان ، وهي يجب أن تختار وتوافق ، فالحياة حياتها والزواج زواجها ، وعليها أن تكون راضية وموافقة على زواجها .
عدي : وقد خشي من غضب الشيخ وفقد كل شيء لذا تراجع قائلاً طبعاً .. طبعاً لا بأس يا مي ، سلها رأيها .
الشيخ : أجل .. ها أنا ذاهب لأخرها بمطلبك وأستطلع رأيها .
وهكذا مضى الشيخ إلى حيث توجد كرامة نهضت مرحبة بوالدها هاشة له باشة .
أبو عمرو : أي بنيتي الحبيبة ، لك عندي خبر ، ولا أدري والله أيسرك أم يحزنك ؟؟
كرامة : أهلاً بك أبي الحبيب ، محاولة رسم طيف ابتسامة على محياها الجميل" هاته .. ما هذا الخبر ؟؟" ويكاد قلبها يقفز من صدرها خشية أن يكون الخبر له علاقة بشويل .
أبو عمرو : جاء لك خاطباً .. سكت هنيهة حتى يرى وقع الخبر عليها ، ثم يواصل إنه عدي بن عدي ، وفي هذه نراها قد قفزت للروغة وتجمع كل الغضب والحقد بوجهها وارتجفت شفتاها واصطكت أسنانها .
ولما رأى والدها ما حل بها أشفق عليها وتجمع كل الحب الأبوي على لسانه وهو ينهض نحوها ويسألها بخوف وحب : ما بك يا ابنتي الحبيبة ؟ ما بك ما كل هذا الذي أرى ؟؟
كرامة : من ذكر ذلك الخبيث الملعون الذي ذكرت .
أبو عمرو : عدي تعنين ؟
كرامة : أجل يا أبي أجل ..
الشيخ : إلى هذا الحد تحقدين عليه وتكرهينه ؟؟
كرامة : بل أكثر من ذلك لو أستطيع لمزقته إرباً إربا .
أبو عمرو الشيخ : ولكن يا ابنتي كبرت بما فيه الكفاية ، ولا بد من الزواج في آخر الأمر...

كرامة : يا أبي الحبيب أرجوك .. أنا لا أريد زواجاً ، ولا أفكر فيه أبداً ، فإن كنت تحب ابنتك وتنشد راحتها وسألتها لتقول رأيها بزواجها بصراحة وبدون خوف أو وجل فأرجوك عندها أن تكف عني ما أكره .
الشيخ : وقد بدت الحيرة على محياه" ولكن ما يعيبه يا بنية " ؟ .
كرامة : أبي أنت سألتني وأنا أجبتك بأنني لا أريد الزواج ، ولا حدثتني نفسي به ولو لم يبق من الرجال إلا ذلك الحاقد الملعون .
أبو عمرو : لا يا بنيتي ما نسيت ، ولكن أخشى أن تكوني تظلمينه .. أنسيت أنه سيد من سادات الحيرة وكبرائها وأراه كفؤاً كريماً .
كرامة : عجباً يا أبي ، وكأنك نسيت مكره وخبثه وسوء تفكيره .. أنسيت حقده ولؤمه .
الشيخ : لا يا ابنتي ما نسيت ، ولكن أخشى أن يدبر لنا شيئاً نكرهه وتكرهينه .
كرامة :إن كنت تريد أن تدفع شره عنك وعن ولدك وتضحي بابنتك فسمعاً وطاعة ، وإن ..
الشيخ : مقاطعاً ابنته .. لا .. لا .. لا تظلميني يا بنيتي ، أنت الحبيبة الغالية ، ولا أريد لك إلا الخير .. صدقيني هذا كل ما أرجوه .
كرامة : إن كنت تريد خيري فعلاً وتأخذ برأيي ز. فقد قلته للتو .
الشيخ : قري عيناً وطيبي نفساً يا ابنتي ، فلن أزوجك منه ولو التقت السماء بالأرض .
كرامة : " افترجت أسارير وجهها وعاد لها بعض هدوئها وصفاء نفسها وهي تقول لأبيها : شكراً شكراً لك أيها الوالد العظيم .. ولكن ..
الأب : ولكن ماذا ، ألم أقل لن أزوجك منه ؟؟
كرامة: نعم يا والدي ، ولكن أخشى من أخي عمرو أن يرغمني على الزواج منه .
الشيخ : لا تخشي شيئاً ، والدك ما زال حياً ويملك زمام أمره .
كرامة : آسفة يا أ[ي ما قصدت هذا ، وإنما ..
الشيخ : وإنما ماذا ؟؟ قلت لا تخشي شيئاً وستكون وصيتي الوحيدة لعمرو هي ألا يزوجك إياه رغماً عنك ، وكما تعلمين فعمرو لا يعي لي أمراً أو رغبة .
كرامة : تحتضن أباها وتقبل يديه شاكرة ممتنة له .
الشيخ : يربت على ابنته ويخاطبها وهو يهم بالانصراف .. اهدئي وافرحي ولا تراعِ أبدا .. أبداً .
عاد الشيخ إلى حيث ترك عمرو مع المدعو عدي . وحين رأى عدي وجه الشيخ عرف أنه لم يلق قبولاً ولكنه بادر الشيخ متلهفاً وسائلاً .
عدي : هيه .. يا عم كأني بها قد رفضت .
الشيخ : متردداً في الإجابة وبصوت حاول أن يكون هادئاً وطبيعياً .. لا .. لا ..

ليس تماماً .
عدي : إذن ماذا ؟ .. ماذا كان موقفها تماماً ؟
الشيخ : موجهاً الكلام إلى ولده قائلاً .. أرى يا ولدي أن نؤجل البحث في هذا الموضوع الآن لوقت آخر . إذ هي لا تفكر الآن بالزواج .. وربما لاقت فكرة الزواج لديها قبولاً في المستقبل .
عمرو : ولكن يا أبي أظن أن كرامة قد كبرت بما فيه الكفاية ، ويجب عليها أن تتزوج بعدي أو غيره .
الوالد : بلهجة صارمة ومحدقاً بولده بغضب .. كأنك ترد لي أمراً أو تراجعني بأمر قد حزمت عليه وقلت أن يؤجل البحث بهذا الموضوع الآن وكفى .. " ينهض الوالد معلناً انتهاء الحديث ، وهنا نهض عدي وعمرو ثم ودعهما عدي وخرج " وبقي الوالد وابنه " .
أبو عمرو : اسمع يا عمرو .. واسمعني جيداً ، إن أختك تكره هذا العدي كراهية لا حدود لها ، وإني موصيك فاحفظ وصيتي أليس كذلك .
عمرو: أمرك أبي أمرك .. الأمر لك والطاعة علي ، ووصيتك نافذة حتى ولو كلفتني حياتي .
الوالد : أولاً .. لا تركن لهذا الرجل ، وكن حذراً منه لأنني أظنه خطراً عليك ولا يعنيه من صداقتك إلا بمقدار ما يستفيد منك .
ثانياً .. أنا شيخ كبير كما ترى ، وأصبحت على عتبة قبري ، إن لم يكن اليم فربما غداً..
عمرو : مقاطعاً وقاك الله يا أبي وحفظك وأطال عمرك ..
الشيخ : يواصل حديثه .. لذا أرو أن تحفظ وصيتي لك في أختك ، وأن لا تكرهها على ما لا ترضاه ولا تحبه وخصوصاً زواجها من عدي .
عمرو : ولكن يا أبي ماله عدي وماذا يعيبه ؟ .. إنه رجل كفء من سادات الحيرة .
الشيخ : أراك اليوم ولعاً بجدالي ..
عمرو : معاذ الله يا والدي .. أن أعص لك أمراً ، ولكن أردت أن ..
الشيخ : قلت لك لا تزوجها منه ولا أريد منك توضيحاً ولا نقاشاً بهذا الموضوع .. أمطيعني أنت ؟؟ .. وحافظاً وصيتي .. أم ماذا ؟
عمرو : لا تتم يا أبي أنت تأمر وما دامت هذه رغبتك فلك الأمر والنهي حياً وميتاً .
الوالد : يبتسم ابتسامة الرضا قائلاً " بورك فيك يا ولدي ، إني أوصيك خيراً بأختك ونفسك " .
كرت الأيام وتعاقب الليل والنهار .. وجرى الزمان بحدثانه .. وأخبار الرسول العظيم ρ تتناقلها الركبان وتسير بها المطي ، فتصل إلى العرب قاصيهم

ودانيهم ، ويزداد الرسول ρ قوة على قوة ، ويوماً بعد يوم، ويخرج من نصر إلى نصر ، وكانت دعوته المباركة حديث الناس جميعاً في جزيرة العرب وخارج جزيرة العرب ، سواء في أرض الشام أو أرض العراق . وفدت إليه الوفود ودخل من دخل في دين الله راضياً ومختاراً بعد الذي شاهده الناس من صدق هذا الرسول العظيم ومن تلك الفئة الصالحة النقية التي عزرته آزرته والتفت حوله تنهل من ذلك النهر الزاخر بالخير والبركة والعلم ، ومن ذلك المعين الصافي الرقراق فغدوا قناديل هدى وهداية ومنارات نور تهدي السالكين والمثال الأكمل في مكارم الأخلاق وعزة النفس ، رهبان عبادة في الليل فرسان كماة في النهار على أعداء دينهم ، وكما وصفهم رب العزة في محكم التنزيل { أشداء على الكفار رحماء بينهم } لا تعرف كبيرهم من صغيرهم ، ولا أمريهم من عامتهم . ومن جملة هؤلاء الصحابة شويل الذي كانت كرامة تتصيد أخباره وتسأل عنه كل آت من بطاح المدينة وجوارها ، فتسمع عنه ما تقر به عينها ويفرح عنه قلبها .

ولكن الدهر قلب والزمان يومان يوم يجلب لك الهناء والسرور ويوماً يقلب لك ظهر المجن ويبدل صوفك كدراً وراحتك ضنكاً وسعادتك شقاءً وتعاسة ، وما تواني هذا اليوم عن كرامة ولا تأخر إذا فجها بأبيها ورزئها بوفاته فزلزلت زلزالاً شديداً وتحطم كيانها أو كاد ، وتفطر قلبها أسى ولوعة ، وأصبحت كالريشة في يوم عاصف تتراءى لها قادمات الأيام حالكة السواد كالبحر اللجي متلاطم الأمواج ظلمات بعضها فوق بعض ، فسدت أمامها أقطار السماوات والأرض ، ولولا بصيص من أمل وذبالة من شعاع كانت لا تزال تبعث في نفسها الدفء وتنير لها بعضاً من معالم الطريق ، ذلك هو شويل وأخبار شويل التي تصلها بين الفينة والأخرى .

ومما زاد مرارة الفقد والخوف من المستقبل هو ذلك العدي ، وأن أخاها قد يضعف أمامه ويزوجها إياه ناقضاً للعهد ناكثاً للوصية لا يرعى فيها إلاً ولا ذمة ، وهكذا تقرحت أجفانها وجفت مدامعها من كثرة البكاء والتوجع على غياب الحبيب ، وفقد الأب الغالي الرؤوم ، ذلك الأب الحاني الودود الذي كان يحميها ويقيها من هذا الخضم العاتي من أمواج الحياة المتلاطمة فتعبرها بسلام وأمان –نعم إن والدها بعد فقد والدتها أصبح درعها وحصنها الذي تلجأ إلى كنفه وتلوذ بجنابة كلما دهمتهم دهماء أو اجتاحتهم جائحة. فمن الحامي والنصير الآن؟؟ الأب قد ذهب وولى، والحبيب غائب بعيد، وها هي ستقع لقمة سائغة بين أنياب ذلك الثعلب الماكر ، ثم تعود تمني نفسها الأماني وتهدهد خاطرها بأنها ستكون قوية بما فيه الكفاية لتقف في وجه أخيها وعدي وقفة صلبة ما دام بها عرق ينبض ، ولو وصل الأمر إلى حد أن تقتل نفسها للتخلص من هذا الأمر وهذا الزواج والعذر كل العذر سيكون لها عند شويل ، وكذلك كانت صفية تحاول أن تجاريها أحزانها وتخفف عنها غلواء الأفكار والتصورات ، وأنه لن يكون هناك إلا ما تحب ، وأن أخاها لن ينسى أوي نكث العهد والوعد ، وعندها قط بدأت تستعيد بعض جأشها وهدوء نفسها منتظرة ما تأتي به الأيام .

في هذه الأثناء شاع في الحيرة أن رسول الله ρ قد أرسل الرسل إلى ملوك وأمراء ذلك الزمان يدعوهم إلى الإسلام وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ،

ومن جملة من أرسل إليهم رسله كان كسرى ملك الفرس ، وكان العجب العجاب عند الناس في الحيرة من جرأة ذلك الأعرابي القرشي المنضوي في فيافي الجزيرة العربية بين حراتها وسموم ريحها وجدب أراضيها ، وكان استغرابهم وتساؤلهم أن كيف يجرؤ مثل ذلك الرجل على مخاطبة عظماء عصره وملوك زمانه وخصوصاً عندما يخاطب كسرى شاهشناه الملوك وعظيم ذلك الزمان .

دعنا نهب الآن إلى مجلس ملك الحيرة لنرى وقع تلك الأخبار على ملك الحيرة وعظمائها وشيوخها .

ها هو الملك متصدراً الديوان على أريكة ضخمة فخمة ويقف على جانبي الأريكة عبدان ضخمان بأيديهما المراوح من ريش النعام يلطفان الحرارة فوق رأس الملك ، ونرى كذلك أنه قد جلس على أريكة عن يمينه المعتمد الفارسي وبقية القوم متحلقين حول مجلسه كل حسب قدره ومنزلته التي أنزله فيها الملك . ونرى من جملة الجالسين عدي بن عدي وعمرو ابن أبي عمرو . ونراهما يتهامسان ، ونرى الملك يقطع عليهما همسهما متسائلاً :

الملك إياس : إيه يا عدي ، ماذا لديك من أخبار ؟

عدي : مولاي ، وهل هناك من أخبار غير ذلك الخبر الذي لا يُصدق ..

إياس : أي خبر تصد .. آه أليست تلك الرسالة من ذلك القرشي إلى ملك الملوك كسرى العظيم .

عدي : أجل يا سيدي أجل ..

عمرو : وأيم الله إنني لحائر بأمر ذلك الأعرابي كيف تجرأ وخاطب ملك الملوك كسرى مهدداً متوعداً .. إنه لا شك عندي أحمق مغرور .

إياس : لا ليس أحمق ، لكنه ..

عدي : مقاطعاً نعم سيدي فعلاً ليس بالأحمق ، ولكنه لا شك عندي إنه مجنون مخبول .. إذ لا يفعل مثل هذه الفعلة إلا مجنون .." وموجهاً الكلام إلى المعتمد الفارسي ما رأي سيدنا المعتمد ؟

المعتمد الفارسي : تصوروا يا سادة هذا الأعرابي الذي هو عبد من عبيد مولانا كسرى يتجرأ بالكتابة إليه .. كأنه ند له وليس عبداً ..

عمرو : بلى ، إنها لقحة عظيمة ليس لها مثيل .

ابن آكال : والله يا قوم ، إنني في غاية الدهشة والاستغراب .. إنني أفهم أن يكتب إلى ملك الملوك سائلاً عطاياه طالباً نواله كعادة الأعراب التي نعرفها ، ولكن أن يدعوه إلى الإيمان وبرسالة الإسلام ، فهذا الذي احتار عقلي به . يتضاحك القوم سخرية واستخفافاً.

عمرو : وهو لا يزال يضحك : تصوروا أنه يمني قومه الأماني العراض ويعدهم قصور فارس والحيرة وبلاد الروم أيضاً .

عدي : " غامزاً عمرو " ضاحكاً ، وقصرك يا عمرو سيكون لشويل .

عمرو : آه شويل ضاحكاً ثم فجأة يقول لقد ذكرتني به . يقولون أنه هناك أيضاً يا للتعساء تباً لهم .
الملك إياس : إنني والله لأعجب لأمر هذا الرجل .. كأنه لا يعرف عظمة كسرى أبرويز وقدرته واقتداره حتى يجرؤ على مخاطبته ودعوته إياه إلى الإسلام . ويترك النار المقدسة .
المعتمد الفارسي : لا بد أن مولانا أبرويز سيرسل له الجيوش ويهلكه ويهلك قومه على بكرة أبيهم .
إياس : من منكم يحفظ أو يعرف فحوى رسالته إلى كسرى ؟؟
عدي : وهل هناك غيري يا مولاي ، بل أحفظها عن ظهر قلب .
إياس : أجل يا عدي ، إني أعرف أنك فطن ، بل وماكر لا تفوتك مثل هذه الأمور .
عدي : يا سيدي الملك إن الذي حمل الرسالة إلى ملك الملوك كسرى أبرويز بن هرمز هو أعرابي رث الثياب مرقعها حافي القدمين إلا من بقايا نعل ينتعله ، ويدعى عبد الله بن حذافة السهمي ، وأما الرسالة فتقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن برسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك " .

وبعد أن سمع الحضور هذا الكلام خيم عليهم الصمت العميق وغشيهم شيء من الوجوم والخوف ، إذ لم يسمعوا كلاماً مثل هذا من قبل ، كلام موجز بليغ وبسيط ، ولكنه حازم حاسم تفتح له مغاليق القلوب المقفلة والأنفس الزكية .

لاحظ عدي هذا الصمت المطبق الذي ران على الحضور وخصوصاً الملك راح في إطراقة عميقة فأراد عدي أن يقطع حبل هذا الصمت الثقيل قائلاً :

" أرأيتم قحة مثل هذه القحة في مخاطبة ملك الملوك كسرى .. لا .. ليته اكتفى بالدعوة ، ولكن يهدد ويتوعد ، إنه لا شك عندي مجنون ، لا بل مخبول .

وهنا تساءل الحضور : وماذا كان موقف كسرى ورده على مثل هذه الدعوة والتهديد ؟

المعتمد الفارسي : لقد غضب كسرى أيما غضب ، وأراد أن يقتل الرسول ويفتك به لولا أن الرسل لا تقتل ، اكتفى بتمزيق الرسالة قائلاً : " اكتب إلى هذا وهو عبدي وابن عبدي" .

إياس : وماذا أيضاً ؟

المعتمد الفارسي في الحال أرسل سيدي شاهنشاه الملوك إلى عامله على اليمن الملك بآذان آمراً له أن يرسل إليه رجلين من رجاله ويحضراه إليه .

عدي : وهكذا سيكفينا مولانا كسرى شره وشر سحره ، ويريح الناس منه ومن

معه أمثال الصابئين المارقين شويل وأصحابه .
عمرو : أجل ، أجل تعساً لهم وبعداً للمارقين .
دارت الأيام وتعاقب الأسود و الأبيض على الناس ، وأهل الحيرة لا هون سادرون في لهو الحياة ومشاكل الأيام ، وأصبح صباح فإذا بخبر مذهل ينتشر بالحيرة وهو أن كسرى أبرويز بن هرمز قد خرج عليه ابنه شيرويه وقتله ونصب نفسه ملكاً مكانه ، وهكذا كانت الاستجابة سريعة لدعوة رسول الله بأن مزق الله ملكه كما مزق رسالة رسول الله عليه السلام ، وبعدها أيضاً تناهت الأخبار إلى أهل فارس والحيرة أن ملك اليمن بآذان قد أعلن إسلامه هو والأبناء في اليمن وتابعوا محمداً ρ ، فعظم عليهم الأمر وهالهم الخبر وخصوصاً الطريقة التي أعلن فيها بأذان إسلامه دون أي اعتبار أو خشية وخوف من كسرى شيرويه ، وإذا أردنا أن نعرف سبب إسلام بآذان والأبناء فهلم بنا نذهب إلى قصر عمرو نستجلي الأمر ونستطلع الخبر اليقين ونرى هناك كرامة ووصيفتها ومربيتها صفية وقد جلستا في ركن هادئ من أبهاء القصر أمام نافذة واسعة يقع أمامها جزء من الحديقة الفخمة والواسعة المحيطة بالقصر وداخل أسواره وأمامها صف طويل من أشجار النخيل الباسقة وتشكيلة رائعة من جميع أصناف الزهور والورد وقد كانتا تتجاذبان أطراف الحديث ، فهلم نستمع ونرى ما تقولان :
صفية : متسائلة أعلمت آخر الأنباء سيدتي ؟؟
كرامة : لا أعرف إلا أن شيرويه قد تربع على عرش الأكاسرة وأن بأذان والأبناء في اليمن قد تابعوا ذلك الرجل الذي ظهر بأرض الحجاز .
صفية : ولكن ألا تعرفين كيف أعلن بآذان ومن معه إسلامهم ؟
كرامة : لا ، ولكن مجرد إشاعات .. هات ما لديك من أخبار وأنباء .. مع أنني أعتقد أن بأذان هذا سوف يلقى مر العذاب وسوء المنقلب .. إذ كيف استطاع أن يخرج على مشيئة كسرى شيرويه .
صفية : أي كسرى هذا ، وأي عذاب أغرك ما سمعته من أخيك عمرو ؟ .. لقد أسلموا جميعاً وانتهى الأمر وأبقاه محمد ملكاً على اليمن والأبناء .
كرامة : ولكن لم تقولي كيف حدث هذا وأسلم بأذان هكذا بدون قتال ولا حرب .
صفية : أجل يا كرامة ، بدن قتال ولا حرب أو طعان ، ولكن إليك هذه القصة التي يتداولها الناس هنا كما سمعتها عن سبب إسلام باذان ومن معه ، وهي تدعو إلى العجب والاستغراب .
كرامة : فعلاً لقد شوقتني وأثرت فضولي كثيراً لسماعها ، فقصيها علي يا صفية .. أسرعي.
صفية : على هونك يا كرامة .. ستعرفين كل شيء .
أتذكرين أن كسرى المقتول من ابنه شيرويه قد أرسل إلى بآذان يأمره أن يرسل رجلين من رجاله إلى محمد ليأتيا به مخفوراً إلى المدائن ..
كرامة : أجل .. أذكر هذا ولا شك ، وكما علمنا أن بآذان قد صدع للأمر وأرسل رجلين من خيرة رجاله هما قهرمانه بابويه .. وخُرّخُسره ..

صفية : تماماً .. لقد ذهبا إلى المدينة كرسولين وطلبا مقابلة محمد ، وعندما أخلا عليه لمقابلته تقدم بابوية وخاطب محمداً قائلاً :

" إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى أبرويز قد أرسل إلى الملك بآذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنا إليك لتنطلق معنا ، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ما ينفعك ويكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك " .

كرامة : يا لجرأة الرجلين ، لا بد أن محمداً وأتباعه قد غضبوا وحاولا الفتك بهما .

صفية : لا .. لا .. يا كرامة لم يحدث مما ظننت شيئاً ، إذ إن ذلك الرجل وأتباعه أصبح المشهور عنهم أنهم مثال نادر للأخلاق العالية والصفات النادرة الخيرة ، ولا يقدمون على مثل هذه الفعلة الشنيعة .

كرامة : إذن ماذا كان الجواب والمواقف من هذا الكلام الجريء ؟

صفية : استقبل كلامهما بكل هدوء ورحابة صدر وأجابهما أن الله سبحانه وتعالى قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله وحدد لهما ميقات ذلك ، فكانت ساعة مقتله بالضبط كما أخبرهما .. كما ترين إن هذا هو العجيب ، إذ كيف يكون محمد قد عرف الخبر وأذاع به على الرغم من المسافات الشاسعة التي تحتاج إلى أيام وليال لقطعها وتضرب لها بطون الإبل لتقطع تلك الفيافي الشاسعة والقيعان المملوءة بسراب الماء .

كرامة : والله إن هذا لأمر غريب مستعجب .. ولا يمكن أن يصدر إلا عن نبي يأتيه خبر السماء .

صفية : أجل .. أجل يا كرامة ، وهذا ما قاله بآذان إذ قال : " والله ما هذا بكلام ملك ، وإنني لأرى الرجل نبياً لما بلغه مقتل كسرى أبرويز من قبل ابنه شيرويه كما أخبرهم بذلك محمد " ، ولذلك صدقه وآمن به .

كرامة : والله إن هذا ليجعل كل ذي عقل نير وقلب مفتوح ونفس صافية شفافة أن يكفر بدعوة ذلك الرجل وإلى ما تدعو إليه من مكارم الأخلاق أن يؤمن به ويتابعه .

صفية : وليس هذا فقط ، بل حدثهما أن دينه وسلطانه سيبلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخف و الحافر .

كرامة : إذن هذا يعني أنه لا بد قادم إلى هذه الديار .

صفية : إني لا أستبعد ولا أستغرب ذلك ، وإن لم يكن هو فأتباعه .

كرامة : كم أرجو تلك اللحظة التي فيها يقدمون .

صفية : تغمز بعينها وتهز رأسها طبعاً من أجل شويل أليس كذلك .

كرامة : أجل من أجل شويل ومن أجل أن أعرف هؤلاء القوم . إنني أصبحت مشتاقة إليهم وإلى معرفة ما يدعون إليه .

تقول هذه الكلمات بتأثر واضح وقسمات وجها تلوح عليها بشائر الإيمان ..
صفية : ماذا هل .. ؟ تقاطعها كرامة قائلة :
كرامة : أجل يا صفية أجل ، إن قلبي يفيض حباً ونوراً وأشعر الآن كم كنت جاهلة عندما رفضت أن أتابع شويلاً .
صفية : حمداً لك يا رب ، وأخيراً أراك قد هديت .
كرامة : متسائلة بدهشة وتجب .. و أنت أيضاً ؟؟ تشعرين بمثل ما أشعر ؟؟
صفية : منذ زمن بعيد ، ولكن كنت أكتم الذي بحنايا صدري من شوق وتلهف إلى قدومهم ولقياهم .
وعند هذه اللحظة نرى صفية وكرامة تتعانقان والدموع تنهمر من عينيهما فرحاً وحبوراً .
كرامة : يا الله يا صفية أشعر وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري ، بل وأشعر وكأني أكاد أن أطير من الفرح والسعادة .. إنني أشعر أن كل بضعة في جسدي تتراقص فرحاً وجذلاً .
صفية : طبعاً أيتها الحبيبة ، إنه نور الإيمان وصفاء النفس وانعتاق الروح من ظلمات الشك وقساوة الواقع وتشابك السبل ، إنه نور اليقين والوقوف على أرض صلبة من الحق والإيمان .. أرض لا تمور ولا تهتز تحت الأقدام ، راسخة رسوخ الشم الرواسي من الجبال .
كرامة : حمداً لك يا رب .. حمداً لك ، الآن أضأت لي دربي بنور الإيمان وبان سبيلي واستقام وسأقيم على هذه المحجة الواضحة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا .
صفية : حسناً يا حبيبتي ، ولكن أرجوك أن تكتمي هذا الأمر وتبقيه بين حنايا الضلوع وثنايا النفس واجعليه المدد والزاد الذي يرفدك بالصبر والاطمئنان والأمن والأمان كلما ادلهمت الخطوب وتلبدت السماء بالسحب السود المظلمات .. وإياك ثم إياك أن يطلع أحد على سرك هذا ..
كرامة : أجل .. أجل يا صفية إنه في السويداء من القلب تحوطه الضلوع وتحرسه الروح.. إنه أعز من الروح وأغلى من النفس .
وبعد انقضاء سنوات ثلاث ينقصن أو يزدن قليلاً يلتحق الرسول عليه السلام بالرفيق الأعلى ويبايع أبو بكر الصديق بالخلافة من بعده عليه السلام ونرى أمر الإسلام يضطرب ويهتز حبل الأمن والإيمان حتى كاد أن ينقطع في الجزيرة العربية ، وتدلهم الخطوب وتعتور مسيرة الإسلام الأنواء الهوج والعقبات الكاداء والصعاب الصعبيات .. فما هم الروم يتربصون بالإسلام على حدوده الشمالية بعد موقعة مؤتة وهؤلاء هم الفرس على الحدود الشرقية بعد أن استشعروا الخطر بعد إسلام بآذان تراهم ينتظرون الساعة الملائمة للإجهاز على هذا الخطر الداهم الذي ما عرفوا له مثيلاً ولا حتى وقعة ذي قار تلك ، وليت الأمر بقي على هذين العدوين ، ولكن ضعاف الإيمان والمنافقون من العرب والأعراب يقلبون للإسلام ظهر المجن ويخرجون بل ويرتدون عن الإسلام جماعات وأفراد ..
وانتشرت دعاوي المتنبئين والكاذبين وأحاطوا بالمدينة المنورة إحاطة

السوار بالمعصم .. وعلى الرغم من كل هذه الخطوب الجسام والليالي الحبالى بكل أمر خطير ما فت بعضد الخليفة العظيم وما خالج الشك نفسه لحظة من زمن وكيف يخالجها وهو من عرفنا أنه تلميذ محمد ، وأنه ثاني اثنين إذ هما في الغار ، وقد تربى على يديه وتخرج من مدرسته واثقاً بوعد الله سبحانه وتعالى لنبيه وللمؤمنين من بعده لينصرن الله سبحانه وتعالى هذا الدين ويظهره على الدين كله ما استمسكوا بحبله المتين الذي لا ينقطع ، كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه السلام .

ولذلك نراه رضي الله تعالى عنه يشمر عن ساعد الجد وينشط في مقاتله أهل الردة ويسير جيش أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه إلى أرض الروم ليؤدب الروم ويثأر لقتلى الخطاب قائلاً له تلك القولة المشهورة ثكلتك أمك يا عمر " أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام " والله ما كنت لأفك عقدة لواء عقده رسول الله ρ امض إلى أرض الروم مع جيش أسامة .

كما وسير الجيوش إلى قتال المرتدين ، وكان من أبرز قواده الذين قاتلوا المرتدين : خالد بن الوليد سيف الله المسلول ψ .

سار خالد بن الوليد إلى قتال طليحة الأسدي فظهر عليه وفرق جماعته وشتت شمله ، وبعدها أمره أبو بكر الصديق لينهد إلى اليمامة ليقاتل كذابها مسيلمة وهو أقوى المرتدين شوكة وأكثرهم جمعاً ونفيراً وأعزهم جانباً .. طبعاً كان للفرس دور كبير في إثارة القبائل العربية في البحرين واليمامة .. إذ شجعوا الناس على الخروج والارتداد والعصيان طمعاً في أن يقضى على الإسلام في مهده ومن قبل العرب أنفسهم ، وبذلك ترتاح فار منهم ومن شرورهم والآن .. دعنا نترك حروب الردة وهي تدور رحاها وتطحن طحنها من صحابة رسول الله ρ ومن المرتدين ونعود إلى الحيرة ومرابعها لنرى كيف حال القوم هناك ، ونرى عدي بن عدي ما أخباره وما آخر مكره وحبائله . ها هو نراه الآن وهو يتحرق شوقاً وأملاً بالوصول إلى كرامة إذ جذوة التحدي والهوى لم يخمد أوارها ولا هدأت نارها في صدره وسولت له نفسه أن الوقت ملائم و التوقيت مناسب ليفتح الموضوع مع صديقه عمرو بعد أن ذهب الوالد وبقيت كرامة تحت رعاية أخيها . وذات مساء وهم جلوس في قصر عمرو والغيد الحساني رقصن ويغنين والغلمان والجواري يقمن بخدمتهم وبنت الصهباء تدور عليهم وهم يتجاذبون الحديث المرح الضاحك ويعاكسون الجواري الحسناوات ، نرى عدياً وقد اعتدل في جلسته وبدأ كأنه يستجمع رباطة جأشه وأطراف شجاعته ولاحظ ذلك عمرو ، فسأله :

عمرو : مالي أراك اعتدلت في الجلوس ووضعت الكأس وران الصمت على محياك.. كأنك تريد أن تقول شيئاً .

عدي : أجل يا عمرو .. إنني أريد أن أخبرك بأمر هام لا يفاق خيالي وأرجو أن يكون هذا الوقت هو الوقت المناسب له .

عمرو : يظهر بعض الاهتمام ويتساءل " والكأس لم يفارق أصابه " ما هو يا عدي

.. قل.. قل ولا تكتم عني شيئاً .
عدي : تعلم يا عمرو .. إنني .. إنني أريد أن أكرر طلبي السابق الذي تقدمت به إلى والدك .
عمرو : يتغير لون وجهه ويصبح جاداً كل الجد ويعتدل بجلسته سائلاً عدياً" بصوت بذل جهداً كبيراً ليبدو عادياً" أي طلب هذا يا عدي ؟؟
عدي : ما لي أرى وجهك قد امتقع وتغير لونه .
عمرو : باذلاً جهداً كبيراً ليتمالك نفسه .. لا .. أبداً .. فقط .
عدي : يا عمرو ، أنا صديقك المخلص ، وما تخليت عنك يوماً ، وأريد أن تزوجني أختك ليقوى ويشتد حبل صداقتنا ومودتنا .
عمرو : كالمسموع .. لا .. لا يا عدي ، اطلب كل شيء مني إلا هذه .. وتذكر وصية والده التي عادت حية شاخصة أمامه .
عدي : لا أريد أي شيء إلا كرامة .
عمرو : ينهض واقفاً ويروح جيئة وذهاباً .. وصورة والده حاضرة في ذهنه وهو محتار ما يفعل ، وبدأ يهمس بكلمة مستحيل ، ثم بدأ الهمس يعلو شيئاً فشيئاً حتى أصبح كالصراخ وهو يردد كلمة مستحيل مستحيل أن يحدث هذا .. وأخون العهد والوعد ..
عدي : وهو لا يزال يرجو أن يثنيه عن موقفه" ولما المستحيل ، ألست أنت وليها الآن بعد والدك ؟ ثم ألست أنا صديقك الصدوق ؟ يقول هذا ويحاول النهوض والاقتراب من عمرو .
عمرو : وقد حزم أمره وعقد عزمه على الرفض والوفاء بوصية والده : فأجاب بلهجة قاطعة مانعة لا تقبل النقاش والجدل .. قلت لك مستحيل لن يحدث هذا واطلب أي شيء آخر إن شئت .
عدي : بدأ يفقد هدوءه ورباطة جأشه ويجيب عمرو بلهجة فيها صلف وتدل على القوة والمن والاستعلاء على عمرو : يا عمرو ، ألم يحن الوقت لسداد بعض ما أسلفت إليك ، إنك لا شك لئيم ناكر للجميل .
عمرو : وقد طفح كيله وغلى مرجل غضبه بما تمن علي أيها الحقير ؟! وأية ديون تريد سدادها يا ابن القتيل ؟ إنك لا شك شيطان رجيم .
عدي : أنا الشيطان يا عمرو ؟؟ إنك إبليس اللعين بعينه وابن لكاع أيضاً .
عمرو : أتشتمني يا ابن اللئيمة ؟ ويمد يده على مقبض سيفه صائحاً : والله لولا أنك في قصري لأزهقت روحك من بين جنبيك ، اخرج قبل أن أفعلها اخرج ولا تدعني أرى وجهك بعد الآن ..
عدي : تطردني أيضاً يا وقح ! والله لأعقدن لك خية لا يفلت منها المهر الأرن .. يقولها وهو خارج .

عمرو : أتهددني يا وغد .
عدي : سترى ولن يطول انتظارك وخرج من بوابة القصر على جواده وهو يكاد فتفتك به نار الغيظ والحقد على هذا الذي كان يعتبره صديقه وصنيعة يده ، سمعت كرامة الصراخ فهرعت إلى حيث أخوها ورأت عدياً خارجاً من الباب وأخاها في حالة من الغضب والهياج الشديدين ويهتز من شدة غضبه وحنقه كالقصلة فتبادره " وهي وجلة خائفة " بالسؤال :
كرامة : أخي ، ماذا هناك ؟ مالي أراك هكذا عساك لا تشكو شيئاً . أثار كل هذا الغضب والحنق وأفسد عليك ليلتك .
عمرو : عندما رأى أخته قادمة زفر زفرة شديدة محاولاً السيطرة على نفسه وأجاب أخته : لا شيء .. لا شيء .. فقط ذلك اللعين .
كرامة : من .. ؟ .. عدي ؟!
عمرو : أجل .. عدي .. عليه اللعنة .
كرامة : ألم أحذرك منه ، قبحه الله من شيطان مريد .
عمرو : أجل إنه شيطان ، وقد طردته شر طردة .. وذهب وهو يتوعد ويتهدد .. قال هذه الجملة الأخيرة ورنة من الأسى والتوجس تشوب كلامه إذ يعرف مدى خبث عدي ومكره ودهائه .
كرامة : وماذا كان يريد ذلك الماكر ؟
عمرو : وهل يريد غيرك .. يريدك زوجة له .
كرامة : " امتقع وجهها وسرت رعشة في جسدها حتى هزتها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها " .
اللعين ، إنه ليس إنساناً بل جماداً قد من صخر ، لا يلين ولا يرعوي ولا يقبل بديلاً عن بغيته ، ولكن ليعلم أن نجوم السماء أقرب إليه منالاً مني .
عمرو : وقد عاوده هدوءه وفاضت نفسه حناناً على أخته لا تراعي يا أختاه ، لقد طردته شر طردة ، ولني عود مرة أخرى أبداً .
كرامة : شكراً لك يا أخي ، وبورك فيك حافظاً للعهد والوعد ، واحذر من ذلك اللعين، وخذ تهديده على محمل الجد والاهتمام .
عمرو : فعلاً ، إنه كذلك ، وسأكون حذراً منتبهاً ولا عليك يا أخية ، فحمايتك هي واجبي ، انصرفت كرامة وهي مسرورة مغتبطة بعد أن انصرم حبل الود والوفاق بين أخيها وعدي ، وبذا أمنت شره وأمر زواجه منها ، ولكنها لم تأمن شره ومكره بها وبأخيها، وبدأت الهواجس والأفكار تنتابها وتسد عليها أقطاراً نفسها مما قد يقم به ذلك الوغد الشرير ، وما الذي يمكن أن يجلبه لهما من السوء و الشر .
وبينما هي على تلك الحال من الوجوم والسهوم ، وإذا بصفية تقابلها متسائلة :
صفية : ما لي أراك هكذا شاحبة الوجه وجلة الخاطر أرى الاضطراب مرسوماً على وجهك .

كرامة : وهل غير ذلك الوغد الذي أصبح مصدر قلق دائم لي من عرفني وعرفته .. إنها لا شك ساعة نحس تلك الساعة التي عرفني بها .
صفية : وهل عاد إلى سؤاله الزواج منك ؟؟
كرامة: أجل ، ولكن أخي والحمد لله كان شهماً ووفياً بعهده ووعده ، ولما رفض الاستجابة لطلبه ثار ثورة عارمة ، ولكن أخي طرده شر طردة .
صفية : إذن احمدي الله الذي أنقذك منه .
كرامة : أجل الحمد لله ، ولكني خائفة منه ومن شر أعماله .
صفية : هوني عليك ، إن الله الذي وقاك شره وكل هذا الزمن فهو قادر لأن يتكفل به ويقيك شره ومكره ، إنما اسمعي أريد أن أنقل إليك خبراً يفرحك .
كرامة : " متلهفة " يفرحني ؟ ما هو هذا الخبر ؟
صفية : كلنا سمعنا بأمر الجيوش التي سيرها أبو بكر لمحاربة لمرتدين .
كرامة : أجل إنني أعرف أن كثيراً من الأعراب قد مردوا على النفاق وارتدوا وإن لهؤلاء الفرس اليد الطولى بهذا لأمر .
صفية : هذا صحيح ، إن الفرس لهم اليد الطولى ، لكن جيوش أبي بكر بقيادة خالد بن الوليد استطاعت أن تقيضي على المرتدين وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب وسجاح في اليمامة .
كرامة : الحمد لله ، وإني لأرجو أن تكون وجهتهم التالية هي محاربة دولة فارس والقضاء على هذا الخطر الذي لا شك فيه ، وسيبقى خطراً داهماً يتهدد الإسلام في عقر داره وسوف يعمل بكل جد ونشاط لمنع نشر هذه الدعوة واستقرارها ، وبذلك تبقى العرب متفرقة ضعيفة أمام الأعداء .
صفية : إنني واثقة من ذلك ، وإلا لما بعث الرسول الكريم رسله إلى الملوك في الأقطار يدعوهم إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام وعبادة العباد ، وأن أبا بكر لا بد وأنه واع لهذا الخطر وأمين على دعوة الإسلام .
كرامة : وفقهم الله وإننا ننتظر قدومهم كالأرض العطشى للماء الزلال .

كما عرفنا فيما سبق كيف أن عدياً قد طرده عمرو وخرج من قصره مدحوراً مقهوراً يكاد ينفجر من شدة الغيظ والغضب ، وبدأ يشحذ فكره وعقله حتى يهتدي إلى الوسيلة التي تمكنه من تأديب عمرو وإلحاق الأذى والذل والعار به أبد الدهر ، وأن لا تقوم له قائمة بعدها أبداً ، وفي سبيل ذلك فلتذهب كرامة وحبها إلى الجحيم ، حيث أن كرامته قد جرحت وأما كرامة فأصبحت بعيدة المنال إذن فليهدم كل شيء وليكن على رأس كرامة وأخيها .

وسوف يحرمها من شويل إلى الأبد الذي لا تزال مخلصة له قائمة على الود والعهد . وبعد طويل إمعان وطول تفكير هداه فكره الشيطاني إلى فكرة جهنمية .

محدثاً نفسه : لماذا لا يذهب إلى هرمز صاحب الثغر وأمير الأبلة المسؤول عن تلك النواحي والديار ويحدثه عن كرامة ومالها ورجاحة ع قلها وكمال حسبها ونسبها ويشوقه لها والزواج منها .

هرمز هذا كان من أشد أمراء وقادة فارس على العرب بطاشاً دموياً لا يرحم صغيراً ولا يوقر كبيراً حتى أصبح يضرب المثل به وبحوره وقسوته وجبروته فيقال :

أخبث من هرمز .. وأكفر من هرمز وأبطش من هرمز .. وهكذا ..

كان يغزو العرب بالبر ويذيقهم من العذاب ألواناً ويحارب الند بالبحر فيفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وهكذا رأى عدي أنه قد وقع على ضالته المنشودة واهتدى إلى الوسيلة التي سوف يقضي بها على عمرو وأخته ومن غير هرمز لتحقيق هدفه وغايته ؟

وهكذا جهز راحلته وشد رحاله وانطلق يغذ السير من الحيرة إلى الأبله حيث إقامة هرمز . وهنا نحن نراه قد وصل قصر هرمز وهو يستأذن بالدخول على هرمز ، دعنا نراه كيف يتصرف وبماذا يتحدث هذا الماكر الداهية .

ها هو قد أذن له ودخل على هرمز الجالس على عرش عال مطعم بأنواع الأحجار الكريمة ومطلي بالذهب الخالص وحوله الرؤساء و القادة والحاشية ويقف على رأسه عبدين غليظين ضخمين يحملان مراوح من ريش النعام ، وهما يلطفان ويرطبان الجو عليه .

وحالما دخل عدي إلى مجلس هرمز قدم فروض الطاعة والولاء من ركوع وسجود بين يديه ولثم أطراف ثوبه وهرمز يرمقه بطرفه وبعد أن انتهى من فروض الطاعة والولاء أمره هرمز أن يجلس في المكان المخصص لمثل هؤلاء الأعراب ، ولكن عدي قبل أن يجلس حيث أمره هرمز استأذن بالحديث .

فقال له هرمز : تكلم أيها الأعرابي وأوجز .

عدي : سيدي القائد العظيم ، ما أنا إلا عبد من عبيدك ، ومولى من مواليك ، وما أتيت إلا لخير أردته لك ، وصنيع أردت به التقرب إلى جناب القائد العظيم حتى يشملني بعطفه وجميل صنعه وجزيل نواله وعطائه .

هرمز : " وقد بدا عليه الاهتمام لما يسمع من عدي ، ولكنه ما زال صارم النظرة جامد القسمات قاسي التعابير " . قلت لك أوجز ولا تطل .

عدي : أمر سيدي .. ولكن .. ولكن .. وقد تظاهر بالحيرة والتردد .

هرمز : أيها الأعرابي ما بالك ؟ أخرست ؟ تكلم فوقتي أثمن من أن أضيعه معك .

عدي : سيدي .. لا أدري ، ولكن لو سمح مولاي وجعل حديثي له وحده .

هرمز : مشيراً بطرف إصبعه إلى الحضور .. فاخلوا المجس حالاً متابعاً هرمز حديثه .. ها قد بقينا لوحدها ، فقل ما عندك .

عدي : أمر سيدي .. إنه في الحيرة يا سيدي فتاة لا كالفتيات ، كريمة الأصل و النسب ، شريفة المحتد والأهل ، جميلة الصورة طليقة المحيا ، كلامها درر ولحاظها سحر ، وأهدابها سهم ونظراتها قاتلة من غير سلاح .

هرمز : ويحك ، لقد أثرت فضولي وشوقتني لها .. من هي هذه الفاتنة القاتلة من غير سلاح ؟؟

عدي : نعم يا سيدي ، وأكثر مما وصفت ، وإنها أخت أحد عبيدك ، وهو عمرو بن عمرو اللخمي ، واسمها كرامة ، وإنما أردت أن أرشد إليها مولاي ليطلبها زوجة لنفسه ويزداد أخوها شرفاً ورفعة .
هرمز : يفكر قليلاً وأصابعه تعبث بعثنون ذقنه ثم يقول متسائلاً ، وإن رفض أخوها ؟؟
عدي : وهل يستطيع ذلك ؟؟ ثم لماذا يرفض ؟
ألست أنت القائد العظيم الذي يتمنى الأمراء والملوك مصاهرته والتقرب إليه ؟؟
هرمز : معتدلاً بجلسته وقد بدا عليه الاهتمام الشديد وهو يقول لعدي : ويحك لقد شغلت لي بها وشوقتني لرؤيتها .. هلا تستطيع أن تصفها بأكثر مما قلت آنفاً .
عدي : أجل يا سيدي " معتدلة الخلق ، نقية اللون ، جميلة الثغر ، بيضاء وطفاء كحلاء شماء الأنف ، أسيلة الخد ، كاعب الثدي ، رزينة حليمة كريمة الخال والأب .
هرمز : وقد ظهرت علائم الفرح والسرور : ويحك يا عدي ، إنني أصبحت أتحرق شوقاً إليها وضمها إلى جواريّ ونسائي .. ما اسمها قلت يا عدي .. ما اسمها ؟
عدي : كرامة يا سيدي كرامة .
هرمز : كرامة .. كرامة .. ويصفق بكفيه فيدخل أحد حجابه .. أمر مولاي .
أيها الحاجب إلي بالكتاب الآن وحالاً ، ويعود بعد برهة والكاتب معه وقد أحضر قلماً وقرطاساً ووقف خاشعاً صامتاً أمام هرمز .
هرمز : اكتب إلى ملك الحيرة إياس بن قبيصة وإلى معتمدنا هناك أن يرسلا لي كرامة هذه حال وصول رسالتي ورسلي إليه ، وإياه والتأخير لأنني لن أغفر له .
وأمر لعدي بجائزة سخية وطلب منه الذهاب مع رسوله إلى الحيرة .
عدي : أمرك سيدي ، ولكن لو تفضل مولاي وأعفاني من هذه المهمة ، إذ لي بعض الأقارب والصحاب وأريد أن أبقى عندهم وألهو معهم في مرابع الأبله .
هرمز : كما تشاء يا عدي ، ولكن لا تنسى أن تمر بي من وقت لآخر ، وخصوصاً عندما يحضرون كرامة .
عدي : أمر مولاي ، ثم يخرج متراجعاً إلى الخلف دون أن يعطي هرمز ظهره وهو يركع وينحني وهو يقول هذا مَنٌّ وفضل .. هذا من وفض من سيدي القائد العظيم .
خرج اللعين من مجلس هرمز وهو يكاد يطير من الفرح والغبطة بعد أن أحكم الأنشوطة ضد عمرو و أخته وهو يحدث نفسه : سوف ترى يا عمرو وبال معاداتك لعدي ، ولن ينجيك شيء إما العار والشنار وإما القتل والدمار .
يذهب رسول هرمز إلى الحيرة وحالما وصلها أخذ طريقه إلى قصر ملكها إياس ، وبعد أن يستأذن بالدخول إلى ديوان الملك ، وبعد أداء فروض الطاعة الواجبة يقول له : أيها الملك العظيم ، إنني أحمل إليك رسالة من مولانا وقائدنا هرمز ثم

يناول الرسالة إلى الملك. يتناول الملك الرسالة ويضعها على رأسه ثم يدفعها إلى حاجبه ليقرأ عليه الرسالة ، وبعد أن يعرف الملك فحواها ومطلب هرمز اعتراه اضطراب شديد وتبدلت ملامح وجهه واعتراه وجوم طويل . ماذا يفعل بأمر هذه الرسالة الخطيرة وهو يعرف هرمز وبطشه وظلمه وأن وراء هذه الرسالة سيكون شر خطير ، إذا لم يستجب هو وعمرو إلى مطلب القائد البطاش ويرى رسول ه رمز حال الملك وتبدل سحنته وبلباله فيقول سيدي الملك ، إنني في عجلة من أمري وأريد أن أعود بسرعة إلى سيدي هرمز لأنبيه الخبر .

وهنا لم يجد الملك أمامه إلا الامتثال إلى طلب هرمز ويأمر أحد حاشيته بأن يذهب إلى قصر ابن بقيلة عمرو و يطلب منه الحضور إلى ديوان الملك لأمر هام وخطير .

استغرب عمرو هذه الدعوة المستعجلة له من الملك ، ولكنه سارع إلى تلبية دعوة الملك ، وبعد أن مثل بين يدي الملك وسلم عليه ودعا له ، طلب منه الملك أن يجلس حيث مكانه بين علية قومه وأعيان بلاطه .

لاحظ عمرو وجود الرسول الفارسي في مجلس الملك ، وأخذ يفكر قد يكون سبب هذه الدعوة المستعجلة له علاقة بوجود هذا العلج الفارسي في مجلس الملك ، ولكنه آثر التريث ليعرف الخبر وسبب هذه الدعوة . بعد أن اطمأن في مجلسه اتجه بنظرات متسائلة إلى الملك ولاحظ اضطراب الملك وتردده ، وأخيراً دفع الملك بالرسالة إلى عمرو ، قرأها عمر بتمهل وإمعان وتؤدة ، وأثناء قراءته لها بانت أسارير وجهه وتقلصات عضلاته والاضطراب البادي على يده التي تمسك بالرسالة حتى كاد يتفجر من شدة الغضب والغيظ الذي اعتراه وبدا عليه ، وأخذ يتكلم وكأنه يحدث نفسه قائلاً : لقد فعلها ذلك اللعين ، لقد مكر بي عدي عند هرمز ذلك الحقير الذي لا يرعى حرمة ولا إلاّ بأهله وقومه وكرامتهم وتقاليدهم .. إنه لا شك يستحق القتل ، بل أشنع قتلة عرفتها العرب . وحول أني تمالك نفسه ويهدأ روعه و غضبه قليلاً ودار بوجهه ناحية العلج الفارسي :

عمرو : أما وددتم في مها السواد وفارس طلبتكم لقائدكم لتكون عروساً له .. ألا اعلم يا هذا وأعلم قائدك من خلفك أن هذا الأمر لا يكون ولن يكون إلا على جثتي .

الملك : حاول إياس أني ت دخل ليخفف من حدة غضب عمرو ويهون الأمر عليه : يا عمرو اهدأ وتذكر أنك في مجلسي ، ثم إن القائد هرمز من عرفت حسباً ونسباً بين أهله وأقرانه من فارس .. أنسيت أن هرمز ممن تم شرفه وأن قلنسوة بمائة ألف ولا أرى غضاضة من تزويجها له وأنتم خير من عرف هرمز أنه تخشاه الروم في مسالحها والعربان في بواديها ويحصل على طلبته ولو كانت بين عقبان السماء .

ولكن عمرو أبي بعزة وشمم ورفض أن يستجيب إلى الملك وتوسلاته قائلاً :

لن أزوج أختي إلا لزوج ترضاه لنفسها أو أرضاه لها من خيرة العرب محتداً وأعلاها نسبها ، لا من علج فارسي ،و أصبح معرة بين أهلي وقومي وعشيرتي .. هذا لن يكون أيها الملك لن يكون .. وخرج من مجلس الملك مغاضباً دون استئذان

الملك : " توجه الملك بالحديث إلى رسول هرمز الذي تكوم وتكور على نفسه

خشية من غضبه عمرو " ها قد رأيت وسمعت ، وكم كنت أرغب أن يتم هذا الزواج ويقبل أخوها ذلك .. ولكن أبلغ سلامي وولائي على القائد العظيم وأخبره أنني سوف أزوجه كاعباً من كواعب العرب تفوق أخت عمرو جمالاً ونضارة وعقلاً وقدراً ..

وهكذا عاد رسول هرمز خالي الوفاض وهو عاقد العزم على أن يبلغ هرمز تفاصيل المشهد الذي عاينه ورآه وكيف أن عمرو رفض مستعلياً محتقراً للقائد ، وفي ذلك الزمان كان معروفاً عند العرب أن تزويج بناتهم من غير العرب حِطة وسُبة ومجلبة للعار والشنار ، فهم المشهورون بالحفاظ على نقاء عرقهم وكريم نسبهم ومحتدهم .

كانت هذه الأمور تجري في الحيرة والأبله وما درى القوم فيهما أن خالداً رضي الله عنه كان قد فرغ من أمر اليمامة وكذابها ومن أمر المرتدين في جزيرة العرب جميعاً بعد أن أربكهم وأثبتهم وجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، كذلك فعل قادة جيوش أبي بكر الآخرين الذين وجههم للقضاء على كل من سولت له نفسه الانسلاخ من الإسلام وشق عصا الطاعة على خليفة رسول الله ρ في المدينة المنورة ، وهكذا شاء الله سبحانه أن يتم القضاء على الفتنة المتأججة في مهدها ليصبح المسلمون أكثر قوة ومنعة وتماسكاً بجزيرة العرب ويرخي الإسلام بجرانه وينشر ظلاله الوارفة على الجزيرة العربية التي أصبحت مهد الإسلام العظيم وحوزته الصلبة التي لا تنكسر ، ومنها سوف تنطلق جحافل المجاهدين الأبرار ليبلغوا رسالات ربهم وهدي نبيهم عليه السلام وليجعلوا كلمة الله هي العليا وكلمة اللذين كفروا هي السفلى .

وفي أثناء ذلك وخالد جالس بين قادة جنده يتحادثون ويسمرون عن الأيام العصيبة التي مرت بهم ويحمدون الله سبحانه وتعالى أن من عليهم بالنصر أو الفوز بالجنة لمن استشهدوا من أصحابهم في معركة اليمامة إذ بلغ جملة من استشهد منهم حوالي مائة وعشرين شهيداً نصفهم من صحابة رسول الله عليه السلام وحفظة القرآن الكريم .

بينما كان جملة من قتل مع مسيلمة الكذاب قرابة الواحد والعشرين ألف ، ولذلك سميت تلك المعرة بحديقة الموت لكثرة القتل الذي استحر في أصحاب مسيلمة .

وفي هذه الأثناء يدخل أحد الجند ويخبر خالداً أن هناك رسولاً من الخليفة يستأذن بالدخول عليه فأذن له .

الرسول : دخل وألقى عليهم تحية الإسلام " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " .

خالد : وعليك وعلى خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – السلام . مرحباً ما وراءك يا أخا الإسلام ؟

الرسول : لدي رسالة لك من الخليفة أبي بكر الصديق ثم دفعها إلى خالد بن الوليد .

رسالة أبي بكر الصديق

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول الله إلى خالد بن الوليد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
فإن الله قد فتح عليك فعارق" أي أدخل العراق"
وابدأ بفرج أهل السند والهند" وهو يومئذ الأبله" وأذن لمن شاء بالرجوع ولا تستفتح بمتكاره ، واستنفر من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسولا لله ρ ولا يغزون معك أحد ارتد حتى أرى رأيي" .
بعد أن قرأ خالد الرسالة قال سمعاً وطاعة لأمر خليفة رسول الله .
ثم أمر أن يعلن في الجند أن من أراد الرجوع فليرجع ولا يغزون معنا مرتد ولن يشهد الأيام مرتد .
ثم كتب خالد إلى الخليفة يطلب منه المدد :
فأمده الخليفة بالقعقاع بن عمرو التميمي .
فقال له الناس : أتمد رجلاً قد ارفض عنه جنوده برجل واحد ، فقال الخليفة : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا .
أخذ خالد يستعد بالرحيل إلى العراق من قبل الأبله ، وكتب إلى الأمراء الأربعة : حرملة وسلمى والمثنى ومذعور باللحاق به وأمرهم أن يواعدوا جنودهم الأبله في يوم سماه لهم . ثم حشر من بينه وبين العراق فجمع ثمانية آلاف من ربيعة ومضر وما فيهم مرتد واحد ، وكان قد بقي معه من جيشه ألفين فيصبح عدة من معه عشرة آلاف ، فقدم على الأبله بعشرة آلاف والتقى بالأمراء الأربعة ومعهم ثمانية آلاف ، وهكذا فلقي هرمز في الأبله في ثمانية عشرة ألفاً .
نترك الآن خالداً وهو يتقدم نحو الأبله ونذهب إلى مجلس هرمز لنرى ماذا كان وقع خبر رفض عمرو تزويجه كرامة .
هرمز : جالس في مجلسه كما أسلفت الوصف سابقاً واستأذن بالدخول عليه رسوله إلى إياس بن قبيصة ليرسل له كرامة .
يدخل الرسول ويؤدي فروض الطاعة ويقف صامتاً .
هرمز : ما وراءك ؟ هل أقبلت بكرامة ؟
الجندي : يتردد ويتلعثم وتبدو الحيرة والخوف على محياه .
هرمز : ويحك .. قلت لك ما وراءك ؟
الجندي الرسول : سيدي .. سيدي .. لا أدري ما أقول وهو يرتجف .
هرمز : قل وإلا قطعت رأسك بسيفي هذا ،وينهض مستعداً ويده على مقبض سيفه .
الجندي : سيدي إن أخاها قد رفض طلبكم بكل قحة و استهتار بمقامك سيدي .
هرمز : يزداد غضبه حتى كأن الشر يتطاير من عينيه ويصيح بصوت يرتجف وقبضته ملوحة بالهواء .. ويحه مني .. ماذا فعل إذن إياس ؟؟ ماذا فعل معتمدنا هناك .. ويل لهم جميعاً أيعصون أمري ؟ هؤلاء .. المناكيد .
سأريهم بل سأريه هذا العمرو ماذا سوف أفعل به لأقتله قتلة ت بقى العرب تتحدث فيها أحقاباً . وبينما هو على هذه الحال من الهياج والصراخ ، وإذا بأحد

حجابه يقترب من كبير الحجاب ويهمس في أذنه كلاماً غير مسموع ، وهرمزي نظر إليهما .. ثم تقدم كبير الحجاب من هرمز هامساً في أذنه .وهنا هرمز يصيح متسائلاً من .. ؟ من تقول؟؟ رسول بالباب من خالد بن الوليد .. على جيش من رعاع الأعراب .

ويح هؤلاء الرعاع ، لقد غرهم ما حصل يوم ذي قار ، لا بل غرهم دينهم الذي جاء به ذلك الأعرابي في مكة.

ثم يتراجع إلى كرسيه ويجلس عليه وهو يرتجف من لغيظ وهو يقول : سوف أعرف كيف أتعامل مع هؤلاء الأعراب ، أدخلوا الرسول إلي .

يدخل رسول خالد دون خوف أو وجل أو دهشة مما يرى من بهارج وفخامة ورياش وبدا وكأنه لا يرى شيئاً ذا بال ، واقترب من مجلس هرمز : وهنا تعلق به الحرس محاولين أن يمنعوه من الاقتراب .. لا يبالي بهم قائلاً .

رسول خالد : السلام على من اتبع الهدى ، ودون أن ينتظر رد التحية على تحيته يدفع بالرسالة إلى هرمز ويجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط .

قال له هرمز : ما حملك على هذا ؟

قال رسول خالد : نحن لا نحب لجلوس على زينتكم هذه . وهنا يطلب هرمز من كبير حجابه أن يقرأ رسالة خالد على مسمع من الناس .

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على من اتبع الهدى من خالد بن الوليد قائد جيوش المسلمين إلى هرمز صاحب الأبله

أما بعد :

فأسلم تسلم .. أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"

وهنا نجد هرمز يقهقه .. إيه . إيه . يا لهم من مهابيل أترون أنه يهددني .. يهدد هرمز العظيم الذي تخاف من ذكره الهند والعرب .. ها .. ها .. ها . يقهقه مستهزئاً .

ثم موجهاً حديثه إلى الرسول :

" ما جاء بكم إلى بلادنا ؟؟ " .

الرسول : لقد ابتعثنا الله وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد .. إلى عبادة الله .. ونم ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ذلك ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله .

هرمز : وما موعود الله ؟

رسول خالد : الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي .

قال هرمز : قد سمعت مقالتكم وليس لكم عندي إلا السيف .

طبعاً كان هذا كله يحدث ولم يكن يدري به ابن قبيصة ولا عمرو ، ولذا عاد عمرو من مجلس الملك وهو في غاية الغضب والتوجس وبلبال الخاطر ، وعندما

وصل إلى قصره ترجل عن فرسه ودخل القصر وهو على تلك الحال :
فلما شاهدته أخته كرامة على هذه الحال سارعت إليه متسائلة ومتوجسة :
كرامة : أهلاً أخي .. مالي أراك على هذه الحال ، وماذا كان الملك إياس يريد منك ، وكانت هناك أيضاً صفية ،وكانت واقفة على مسافة بعيدة عنهما وتسمع ما يدور بين الأخ وأخته .
عمرو : لقد فعلها ذلك اللعين .. لقد فعلها .
كرامة : من تعني يا أخي .. وماذا فعل ؟
عمرو : وهل هناك غيره .. إنه عدي بن عدي المقتول .
كرامة : كيف ذلك ؟ وما فعل ذلك المارق ؟
عمرو : كما تعلمين ذهبت إلى مجلس الملك بعد أن استدعاني ،وهناك وجدت رسولاً من هرمز برسالة منه إلى الملك يطلب إليه أن أرسلك عروساً له ..
كرامة : يكفهر وجها وتكاد تقع مغشياً عليها ، ولكنها تماسكت وسألت أخاها .. هيه .. وماذا أجبت الملك ؟؟
عمرو : جواب واحد لا غير ، إنني أرفض هذا الزواج ولو التقت السماء على الأرض .
كرامة : شكراً لك أيها الأخ الحبيب الشجاع ، ولكن .. ولكن .. ألا تخشى ؟
عمرو : في سبيل كرامتي وشرفي لا أخشى شيئاً .. مهما حصل .
وهنا ترى صفية أنه يجب عليها أن تتدخل ، تتقدم بخطوات واثقة وهي تقول :
صفية : كأنكما لم تسمعا ماذا يجري .. ألا تعلمون أن خالداً بن الوليد ..
عمرو : مقاطعاً .. وما له خالد إنه كما نسمع يحارب في اليمامة ، وأن أخبارهم تقول أنهم في ورطة كبيرة مع بني اليمامة .
صفية : لا يا عمرو ، إنك واهم ، إنه الآن بالطريق إلى الأبله مع جيش عدد حصى الأرض .
كرامة : ويحك يا صفية .. كيف ع لمت بهذه الأخبار ؟
عمرو : وماذا يعني ؟ إنهم أيضاً أعداء وسوف نجالدهم عن ديارنا وبلادنا .
صفية : لا يا عمرو .. على الأقل إنهم أبناء جلدتنا وينقذوننا من ظلم الفرس وعسف هرمز .
كرامة : أي والله يا أخي .. إنهم عرب وسوف ينقذوننا من هرمز وأفعاله ، ويقال أنهم أهل عدل وإحسان .
عمرو : سنرى ماذا ستأتي به الأيام .
قالها مهموماً متوجساً ويشعر بثل قد ناء بكلكله على صدره وغادر إلى مقصورته .

بعد أن عاد رسول خالد من عند هرمز وأعلمه بأن هرمز قال أبلغ خالداً أنه ليس بيننا وبينه إلا السيف ، في الحال دعا خالد قادة جنده وأمرائه إلى اجتماع عاجل في مضربه أو خيمته .

خالد : لقد علمتم أن هرمز رفض ما دعوناه إليه ، وقال ليس بيننا وبينهم إلا السيف .

المثنى بن حارثة : قبحه الله ، فأنا أعرف الناس بهذا الهرمز ، إنه مغرور بنفسه وقوته ، ولكن الله سبحانه وتعالى سيذيقه وبال أمره .

عدي بن حاتم الطائي : إنك تعلم يا أبا سليمان أننا صدق في اللقاء ،ونحب الموت والاستشهاد في سبيل الله كما يحبون أولئك عبدة النار الحياة فسر بنا إليهم يا أبا سليمان وسيخزيهم الله على أيدينا .

شويل : إننا خبيرون بهؤلاء الناس ، وهم يظنون بنا كغيرنا من العرب الذين خبروهم وعرفوهم في سالف الأيام ، وإننا حال ما نرى جحافلهم وحديدهم وزردهم وكراديسهم سوف نولي الأدبار .

خالد : إني أرى أن لا نسير إليه جحفلاً واحداً ، بل أرى أن نسير إليهم في جحافل متفرقة فما رأيكم أيها الأخوان ؟

الجميع : نعم الرأي .. نعم الرأي يا أبا سليمان .. إذن فإنني أرى ما يلي :

إن أفرق الجند إلى ثلاثة فرق :

الفرقة الأولى وعلى رأسها المثنى ودليله ظفر ويسلك الطريق الذي يريد .

الفرقة الثانية : وتتحرك كأفواج .

يخرج الفوج الأول منها وعلى رأسه عدي بن حاتم ودليلهم مالك بن عباد ويخرج بعد المثنى بيومين وعلى غير طريقه .

الفوج الثاني وعلى رأسه عاصم بن عمرو ودليله سالم بن نصر ، ويخرج بعد عدي بن حاتم بيوم ، ويسلك نفس الطريق التي سلكها عدي بن حاتم .

الفرقة الثالثة : أكون على رأسها ودليلي رافع ،ويكون شويل وصديقاه معي ، ويكون اجتماع الفرق الثلاثة الحفير وهناك نلتقي مع جموع العدو بقيادة هرمز . والحفير مكان معروف لهم .

أما هرمز فبعد قدوم رسول خالد بكتابه إليه سالف الذكر قال هرمز : سندع الآن أمر كرامة وأخيها عمرو بعد أن ننتهي من هؤلاء الأعراب الذين غرهم دينهم وغرهم الانتصار على بني اليمامة ويوم ذي قار ، وقد أمر بجمع رؤوس قومه من دهاقنة وقادة ، وقال لهم من واجب الاحتياط أن يكتب بالخبر إلى شيري بن كسرى وإلى أردشير بن شيري وكذلك أمر دهاقنته وقادته أن يجمعوا الجموع لملاقاة خالد .

كبير قادته : أرى أيها القائد العظيم أن نعجل في الخروج إلى الكواظم بما معنا من جند .

وهكذا استجاب هرمز لرأي قائده وعجّل بالخروج إلى الكواظم ليلتقي خالداً هناك ، وأرسل من هناك دوريات كشف ليتسقطوا أخبار خلد وأين صار ، وعادت

دوريات الكشف وأعلمت هرمز أن خالداً وقادته قد تواعدوا " الحفير" .

وهنا أمر هرمز جيوشه أن تعوج إلى الحفير ونزل هناك وعبئ جيشه لملاقاة خالد وجيشه ، وجعل على مجنبتيه أخوين يقال لهما قباذ وأنوشجان ،و أشار بعض جيش هرمز أن يقترنوا بالسلاسل حتى يكونوا أصبر في لقاء عدوهم ، ولا يهربون ، وقال البعض الآخر قيدتم أنفسكم لعدوكم ، فلا تفعلوا ، فإن هذا طائر سوء . فقال ذوو السلاسل : بل إنكم تريدون الهرب . أما هرمز فجعل الأمر خياراً لجنده من أراد اقترن بالسلاسل ومن رفض فله ذلك .

وبقي هرمز في الحفير على هذه التعبئة انتظاراً لمقدم خالد .

أما عيون خالد التي سبقت الجيش قد ع لموا أن هرمز قد عاج إلى الحفير وتعبأ هناك للصدام ، عندها أمر خالد جنده أن يميلوا إلى كاظمة حتى لا يقدم على هرمز وقد استراح واستعد في الحفير ، وبلغ هرمز ذلك فبادره إلى كاظمة فنزلها وهو حسير ،وقد اقترنوا والسلاسل والماء في أيديهم .

ورأى هرمز أن يلجأ إلى الغدر بخالد ، فجاء بأربعة رجال أشداء من رجاله وحرسه ورسم معهم خطة الغدر وهي كما يلي :

قال هرمز : عند بداية المعركة سوف أتقدم بين الصفوف وأطلب خالداً للمبارزة ،و عندما يبرز لملاقاتي سوف أبتعد به قليلاً عن جنده وأنتم ترقبون وتتابعون قتالنا ،وحالما ترون اللحظة المناسبة أو بإشارة مني تنقضون عليه كلمح البصر ونقضي عليه ،و بعد قتله سيكون سهلاً علينا الانتصار عليهم .

وصل خالد إلى كاظمة فوجد أن الفرس قد سبقوه إليها ، وأن الماء بأيديهم ، وقد اقترنوا بالسلاسل وتعبوا للقتال .

قال قادة جند خالد أن الأمر خطير يا أبا سليمان ، والماء كما ترى تحت سيطرتهم ، وما كان أعظم جواب خالد وثقته بالله واعتداده بإسلامه إذ قال لهم :

" ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ثم مواصلاً كلامه يا قعقاع "

القعقاع : لبيك أبا سليمان .

خالد : قل لقراء القرآن الكريم أن يتفرقوا بين الجند ويقرؤوا سورة الأنفال المباركة ."إذ بعد معركة بدر الكبرى أصبحت السنة في جيوش المعركة أن تقرأ سورة الأنفال قبل وأثناء المعركة" فحطت الأنفال و الخيل وقوف وبدأ الاستعداد للمعركة على قدم وساق.

عبأ خالد الجيش للقتال :

إلى ميمنة وجعل عليها عاصم بن عمرو و إلى ميسرة وجعل عليها عدي بن حاتم ، أما القلب فكان هو فيه مع شويل وسعيد وعتيبة وباقي فرسان وصناديد المسلمين .

خالد : مخاطباً القعقاع بن عمرو .

إني سوف أبحث عن قائدهم" هرمز " وأنازله وأرجو من الله سبحانه

وتعالى أن يمكني منه .
القعقاع : يا أبا سليمان : إنك قائد الجيش وبك تقوى العزائم ، ولذا أرى أن لا تبارزه وتدع برازه لي أو لمن شئت من فرساننا .
خالد : ثكلتك أمك يا قعقاع .. أتريدني أن أضن بنفسي في موطن من مواطن الله سبحانه وتعالى !
القعقاع : ما إلى هذا قصدت ، وإنما قصدت خير الإسلام والمسلمين أن تبقى سليماً معافى، فتقوى روح الجند ويقاتلوا عدوهم بعزم وتصميم .
خالد : يا قعقاع .. ما أنتم بأحرص بالشهادة مني في سبيل الله .
ولكن أريدك أن تحمي ظهري من غدر الفرس ، وهذا واجبك ، ولك أنت ختار من تشاء من فرساننا .
القعقاع بن عمرو : لك هذا يا أبا سليمان ، وهذا شويل وسعيد وعتيبة معي نحمي ظهرك ونرقبك ونمنع عنك كل أذى ، إن شاء الله تعالى حتى يظهرك الله على ذلك الخبيث .
خالد : بعد أن أمر القراء بقراءة سورة الأنفال وأمر الجيش أن يستعد للنزال والصدام وتراءى الجمعان ، وأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة فأغزرت ما وراء صف المسلمين فقواهم بها ، برز هرمز من بين صفوف جنده وتقدم بجواده الضخم كالفيل" وقد أثقلت الفارس والجواد الحديد والزرد والدروع على عادة فرسان جيوش ذلك الزمان" وهو يصيح بأعلى صوته :
مَرُدْ .. مَدُدْ
أي رجل لرجل .
أين خالد بن الوليد فليتقدم لمبارزتي وجلادي لأرينه اليوم جلاداً تشيب من هوله الولدان .
إن خالداً كان يريد أن يبحث عنه ، وها هو قد ساقه الله إليه ، فما أن طلب خالداً حتى انقض عليه كالصاعقة وبسرعة البرق صدمه صدمة شديدة كالطود فاهتز لها هرمز وتضعضع لها كيانه وعرف أنه أمام نوع آخر من الفرسان لا عهد له به ، ولكنه حاول أن يتماسك ويعيد الكرة على خالد فتجالدا جلاداً شديداً وأبدياً من ضروب الفروسية والقدرة والفن الشيء الكثير حتى تكاد الأسياف تتقد بأيديهما وما هي إلا دقائق حتى اختلفا ضربتين هائلتين واحتضن خالد هرمزاً وأوشك أن يجهز عليه في هذه اللحظة بحركة خاطفة من هرمز انطلقت من صفوف الفرس مجموعة من الفرسان وشدوا الغارة نحو أبي سليمان ولكنهم لم يشغلوه عن هرمز ولا التفت إليهم حتى لا يفلت هرمز من تحت السيف وبلمح البصر نرى أن القعقاع ومن معه انطلقوا لملاقاة فرسان الفرس واجتلدوا جلاداً شديداً ما عليه من مزيد ،وفي هذه الأثناء كان الله سبحانه قد مكن خالداً من رقبة هرمز فجزها والتفت ناحية القعقاع وفرسان المسلمين وساعدهم على الإجهاز على فرسان الفرس .
وبعد الإجهاز على هرمز ومن هب لنجدته صاح خالد بأعلى صوته على

الفرسان .. يا خيل الله وفرسانه .. بسم الله وعلى بركة الله شدوا على عدوكم والله أكبر دوى ميدان المعركة بصوت واحد كأنه الرعد ا لله أكبر .. الله أكبر .

فاهتزت فرائص جند فارس بعد أن شاهدوا قائدهم وخيرة فرسانهم مجندلين وهذا الصوت الهادر كالرعد يشق عنان السماء .

وهنا انهالوا عليهم كأنهم الموج الكاسح الذي لا يبقي أمامه شيئاً إلا اقتلعه وغمره.

ارتفع صهيلا لخيول وبرقت السيوف ولمعت كأنها بروق السماء وللمعركة صليل وقعقعة يطير لها قلب الجبان شعاعاً ، ثار النقع وحمي الوطيس واحمرت الحدق وزحفت المشاة والراجلة لمقابلة جند الفرس المكبلين بالأصفاد وفرسانهم الغاطسين بالزرد والدروع مع خيولهم ، وهنا امتاز الجندي الراجل المسلم والفارس المسلم بخفة الحركة واللف والدوران الكر والفر على عدوهم والمناورات الضرورية ،ولكن لا يعطون ظهورهم لعدوهم إلا متحرفين لقتال أو منحازين إلى فئة من أصحابهم ومعنويات المسلمين مرتفعة وخصوصاً بعد أن أرسل الله سبحانه وتعالى سحابة ممطرة فأغزرت ما وراء صف المسلمين فقواهم الله بها ، وكذلك بعد أن جندل خالد قائدهم هرمز الذي كانت تضرب به الأمثال بالشجاعة والقدرة والجبروت ، وقد أبلى المسلمون في ذلك اليوم بلاء حسناً وخصوصاً منهم بنو عجل وشيبان الذين ثبتوا لميمنة الفرس وهجمات فرسانهم ، وكأن أقدامهم قد انغرزت في الأرض لا تتزحزح للخلف قيد النملة .

وقد أثقلت السلاسل جنود فارس ومنعتهم من حرية الحركة والمناورة ، فكان الجندي الحي لا يستطيع أن يتحرك وبجانبه آخر مقتولاً ومصفداً معه بالأصفاد والسلاسل حتى أن المعركة سميت " بذات السلاسل".

وما أن ارتفع النهار حتى أخذت تلوح بشائر النصر للمسلمين وانهزام جيش هرمز وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل فسقطوا بين قتيل وأسير ، وما هرب إلا القليل ، وكان من الهربى الناجين قباذ وأنو شجان .

اجتمع خالد بقادته وجنده وصلوا لله صلاة الشكر وحمدوا الله سبحانه وتعالى على نعمائه ، ثم بعث المثنى بن حارثة في أثر القوم وأرسل معقل بن مقرن المزني إلى الأبله ليجمع له مالها والسبي ، ثم جمعوا الأسلاب وأحصوها فكانت السلاسل ألف رطل وبعث خالد بما بقي من الأخماس و بالفيل وبقلنسوة هرمز إلى أبي بكر الصديق ψ في المدينة المنورة ، فنفل أبو بكر خالداً القلنسوة وكانت مفصصة بالجوهر ، وكانت قيمتها مائة ألف درهم ، وكانت قلنسوته تدل على تمام شرفه بين قومه .

كما مر معنا سابقاً أن هرمز كان قد بعث يطلب المدد من كسرى شيرويه بن أبرويز ، ولكن في هذه الأثناء كان شيرويه قد مات وجاء بعده ابنه أردشير بن شيرويه ، وكما مر فإن هرمز لم ينتظر المدد وخرج مسرعاً لملاقاة خالد ، وقد غرته نفسه أنه لا بد قاض على خالد ومن معه . بعث أردشير بن شيرويه بمدد وجيش قوي بقيادة قارن بن قريانس .

خرج قارن بن قريانس من المدائن حتى وصل إلى المذار وعسكر هناك ، وقد بلغته أنباء الهزيمة وانتهت إليه الفال والمنهزمين من جيش هرمز ومن جملتهم قباذ وأنوشجان .

قارن جالساً مع قادته وكبراء قومه ومنهم قباذ وأنوشجان .

قارن : أنا أعرف الناس بهرمز ، إنه أحمق أهوج متعجلاً غرته نفسه حتى جلب علينا هذا العار .

قباذ : لقد أخلصنا له النصيحة ، ولكنه أبى إلا مناجزة خالد .

قارن : أنا أ عرف الناس بهرمز كان يظن أن النصر على خالد سهلاً وميسوراً ، وبذا يكسب لنفسه الفخر والمنزلة لدى كسرى وبين فارس .

أنوشجان : لقد قاتلنا العرب من قبل ، ولم يكونوا يحسنون إلا الكر والفر إلى صحاريهم وبواديهم عند احتدام المعركة والنزال .

أحد الفرسان الفارين : فعلاً إننا رأينا قوماً آخرين ، فإنهم لا يعرفون إلا التقدم والمناجزة إما الموت أو النصر .

قارن : اسكت يا هذا ، فلال منهزمون وتريدون أن تبثوا الرعب فينا .

قباذ : ما هذا أردنا أيها القائد ، وإنما نريدك أن تأخذ حذرك وتعلم من تقاتل ولا تخطئ كما أخطأ هرمز .

أنوشجان : فعلاً علينا أن لا نستخف بهم أو نزدريهم ، فإن أمامنا أناساً يحبون الموت ويتقدمون إليه وكأنه مطلب عزيز على أنفسهم .

دهقان جالس : اتحدوا على عدوكم ، وإن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً .

أحد الفرسان : أجل اجتمعوا على القوم مرة واحدة لعل الناس المقدسة تنصرنا عليهم وتشفي صدورنا من عدونا .

قباذ : أجل .. أجل .. لعلنا ندرك منهم ثأرنا ببعض ما أصابونا .

قارن : إذن استعدوا وتهيؤوا لجلادهم ومنازلتهم ، ولا تضنوا بأنفسكم على الموت وحاربوهم بحفيظة وحقد حتى نكفئهم على أعقابهم ونعيدهم إلى هجير صحرائهم ولهيب سمومها .

الدهقان : سترى منا ما يثلج صدرك ويرفع رأسك شامخاً لدى ملك الملوك أردشير وفي جميع أصقاع فارس .

قارن : إذن جهزوا أنفسكم وتهيئوا للقتال ، وأنت يا قباذ على الميمنة أما أنوشجان على ميسرة الجيش ، وأنا ومن معي على القلب ، وإياكم أن تجبنوا أو تنهزموا أو تخور عزائمكم.

قباذ وأنوشجان : نحن لها أيها القائد ، وسترى منا ما يسرك ويثلج صدرك .

كان خالد بن الوليد قد بعث السرايا إلى أنحاء متفرقة من حول كاظمة ومن جملتهم المثنى والمعني ولدي الحارثة الشيباني ففتح الله عليهم تلك الجهات التي أرسلوا لها ، ولكنهم عادوا إلى خالد بأخبار قارن وأنه قد عسكر بجيش كثيف

بالمذار ، وأن فلال ذات السلاسل قد انضموا إليه وعلى رأسهم قباذ وأنوشجان .
بعد موقعة ذات السلاسل ومقتل هرمز زالت من نفوس المسلمين كل هيبة أو وجل من فارس وقوتها التي كانت في نفوسهم أيام جاهليتهم ، ولذلك أصبحت معنوياتهم عالية وثقتهم بإسلامهم وربهم لا تتزعزع ، وأصبحوا يطيرون لملاقاة عدوهم دون خوف ولا وجل ، ولكن دون استهتار ولا تفريط .
وهكذا أصبح المسلمون بمعنويات عالية وأنهم يستطيعون الانتصار عليهم وفل شوكتهم والقضاء على مسالحهم ، لذا نجد أن خالداً لا يريد أني عطي قارناً مزيداً من الوقت للراحة والتقاط الأنفاس وزيادة التعبئة والنفير ، بل يريد أن يستثمر واقعة ذات السلاسل وزلزلتها لكيان ومعنويات فارس .
خالد : أرى أن نسير من فورنا على تعبية كاملة للقتال ، لذا يا قعقاع فلينادي المنادي في الجند أن هبوا إلى عدوكم" وإن الله ناصركم عليهم إن شاء الله" وبادروا بتجهيز جيشه فيقول :
أنت يا عاصم بن عمرو على ميمنة الجيش وأنت يا عدي بن حاتم على ميسرة الجيش ، وأما أنت يا قعقاع وشويلاً في المقدمة ، وأنا مع بقية الجند في القلب .
سار خالد على هذه التعبئة حتى وصل المذار ، فالتقوا جموع قارن فحطوا عليهم كجلمود صخر حطه السيل من علٍ ، ف اقتتلوا على حنق وحفيظة وغيظ في الصدور شديد الفرس يريدون أن يثأروا لذات السلاسل ، لذا تراهم قد تذامروا وتعاهدوا إلى آخر رمق فيهم وآخر عرق ينبض والمسلمون يعرفون أن لا مدد لهم إلا السيوف ، ولا نجدة إلا صبرهم وعزائمهم ، وأنه ليس هناك سبيل إلا النصر أو الجنة" وقراء القرآن الكريم يرتلون عليهم سورة الأنفال" فدارت رحى حرب طاحنة وتعالت الصيحات وشقت التكبيرات عنان السماء وثبت الفرسان ثبات الشم الراسيات ، ثم بدت الدائرة تدور على الفرس وبشائر النصر تلوح ، وبدأ جيش الفرس القهقرى ، وهنا رأى قارن هذا الموقف العصيب وهو من تم شرفه وهو من هو في الحرب والنزال ، ورأى أن القتل قد استحر بين جنوده ، فحدثته نفسه أن لو يخرج إلى البراز والنزال عساه يقتل خالداً وعندها سيتحول سير المعركة . همز قارن جواده فإذا هو كالليث الهصور يجول ويصول بين الصفوف أو بحر مائج عاتي أو ريح عاصف قاصف لا يعترضه فارس إلا جند له ولا مقاتل إلا أضجعه وهو يصيح أين خالد .. إلي يا خالد ..
وما أن رآه خالد حتى خرج إليه كالعقاب الجارح المنقض على بغاث الطير لا يمهله ولا يتأخر عنه ، يريد أن يلحقه إلى هرمز . وبينما خالد منقض على قارن وإذا بفارس من فوارس المسلمين قد اعترض خالداً فنظره خالد فإذا هو بطل من أبطالهم ليث مجرب وفي الحروب له سبق وباع طويل ، قال له خالد ويحك يا أبيض الركبان ، إنه لي ، وقد طلبني أنا ، فقال أبيض الركبان معقل بن الأعشى بن النباش والذي نفسي بيده ما يبارزه أحد غيري يا أبا سليمان .
خالد : إنني أعلم يا معقل أنك ند له وأكثر ، ولكن دعه لي أريحكم منه ومن شروره .

معقل : لا والله يا خالد ، لن يثنيني أحد عن قتاله ومبارزته ، ثم إنك قائد الجيش ونريد أن ندخرك لأيام قادمات .
خالد : إذن أنت وذاك يا أبيض ، ونصرك الله عليه .
وهنا انقض عليه معقل كالقدر النازل فصاوله وبارزه وتجالدا جلاداً شديداً ن وكانا فعلاً ندان قويان ، وضرغامان باسلان ، وأخيراً تمكن منه معقل بضربة سيف صاعقة ماحقة جعلت رأسه يتدحرج من بين كتفيه ، وهنا كبر معقل وكبر المسلمون .. وكان قارن آخر من قتل من الفرس من الذين تم شرفهم .
وكذلك فعل عاصم فقتل الأنوشجان وعدي قتل قباذ .
وقتلت الأعاجم مقتلة عظيمة وانهزموا هزيمة منكرة استشرى فيهم القتل ومنح الله سبحانه المسلمين أكتافهم حتى أفنوهم أو كادوا ، وهرب بقيتهم بالسفن النهرية ، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم والقضاء عليهم على بكرة أبيهم .
وكانت وقعة المذار في صفر سنة اثني عشر للهجرة ، وقال الناس : صفر الأصفار ، فيه يقتل كل جبار على مجمع الأنهار .. وقيل أنه قد قتل من الفرس في وقعة المذار هذه ثلاثون ألفاً سوى من غرق في النهر ، ولم يفلت منهم إلا القليل ، ولم يفلت منهم إلا العراة أو أشباه العراة .
أقام خالد في المذار ولم يستشهد من جيشه إلا القليل ، فجمع الأسلاب وقسمها على من سلبها بالغة ما بلغت ، وقسم الفيء ونقل الأخماس وأرسلها إلى أبي بكر في المدينة وأخبره بالفتح الذي فتحه الله سبحانه على المسلمين .
خالد مع قادته وأمراء جنده ساهرون يسمرون ، قد حلي السمر وطاب السهر بعد الانتصار الكبير على فارس .
خالد : الحمد لله دائماً على نعمائه ومنه ، ولكن علينا أن نتوخى الحذر واليقظة .
عدي بن حاتم : ما رأيناه حتى الآن إن هو إلا النزر اليسير من فارس وقوتها .
شويل : أجل إن فارس إحدى الدولتين العظيمين في حاضرنا ، ولكنا إنما نقاتلهم في سبيل الله ودينه ، ولنخرجهم من الظلمات إلى النور ، والله سبحانه وتعالى ناصرنا على الجميع . ما زالت نوايانا وحربنا هي لله سبحانه وتعالى .
سعيد بن مرة : الحمد لله ، وإنهم لو كانوا عدد رمال الحصى لابد وأن ينصرنا الله تعالى عليهم وكما قال أخونا شويل تماماً .
المثنى بن حارثة : إنهم كذلك ، ولكنا نحارب بهذا الدين الذي كرمنا الله به ، ونحمده سبحانه أن منحنا أكنافهم .
خالد : هل أحصيتم قتلاهم ؟؟
المثنى : إنهم أكثر من ثلاثين ألفاً ، ولم يحمهم منا إلا الماء ، ولم يفلت منهم إلا العريان أو شبه العريان .
خالد : إنني أسميها مذبحة ، وليست معركة ، وإن كسرى فارس لن يدعها تمر دون محاولة رد الاعتبار بمعركة أشد وأقسى . لذا علينا يا إخواني أن نكون على غاية الحذر و الانتباه . ولذا فقد أرسلت العيون إلى النواحي والدساكر يتسقطون لنا الأخبار ويعلمونا ما هم فاعلون .

القعقاع : ألم يعودوا بعد يا أبا سليمان ؟
خالد : لا لم يعد أحد .
عدي بن حاتم : لهم يومان وهم على وشك الحضور إن شاء الله تعالى .
خالد : آمل ذلك ، ونحن بانتظار قدومهم مخاطباً شويلاً .
اذهب يا شويل مع صاحبيك واحصوا لنا الأسلاب و الغنائم . وأعطوا كل ذي حق حقه ، وسلموا الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت ، يدخل أحد الحرس وهو يقول :
إن العيون قد عادوا أيها الأمير .
خالد : إلي بهم حالاً .
دخلوا على خالد ، فإذا هم ضرار بن الأزور .. وعاصم بن عمرو ومعهم مذعور وحرملة.
خالد : أهلاً بكم وعافاكم الله .. هيه .. ما هي أخباركم ؟
ضرار : أخبار المذار أيها الأمير قد بلغت أردشير ، ولذا فقد جيش الجيوش وأرسلها من المدائن وبقيادة الأندرزغر .
المثنى : الأندرزغر هذا فارسياً من مواليد السواد .
مذعور : أجل إنه لم يولد بالمدائن ، ولا نشأ بها ، ولذا فإنه أقرب إلى البداوة والخشونة .
ضرار : لم يكتف كسرى أردشير بجيش الأندرزغر ، بل أرسل جيشاً آخر بقيادة بهمن جاذويه .
خالد : وأين أصبح الجيشان ؟؟
مذعور : إن الأندرزغر قد وصل إلى الولجة وهو معسكر هناك الآن .
حرملة : أما بهمن جاذويه فقد أمره كسرى أن يسلك طريقاً غير طريق الأندرزغر .
ضرار : إنه بـ" قسيانا " لذلك سلك طريق السواد وهو معسكر الآن ولم يسلك طريق الأندرزغر .
خالد : هذا أول النصر إن شاء الله تعالى .
خالد : ماذا عن الأندرزغر ؟
ضرار : لقد طلب الأندرزغر من أهل الحيرة وعرب الضاحية والداهقين أن يقدموا إليه بجموعهم لمساعدته في حرب خالد وعسكروا إلى جانب جيش الأندرزغر .
خالد : تباً لهم هؤلاء الأعراب ، إننا عرب مثلهم وما نريد إلا أن نخلصهم من فارس وظلمها وتبعيتهم لها ، ولا أعرف كيف يحاربون هادي العرب وينصرون مضل فارس؟!

ضرار : هذا كل ما لدينا من أخبار .
خالد : أرى أن نسرع إليهم ونبادرهم بالولجة قبل أن يطمئن بهم المقام .
عاصم بن عمرو : نعم الرأي يا أبا سليمان .
خالد : أنت يا سعيد بن مرة ومع صاحبيك خذ ألفين من الرجال من الآن وعليك بالكمين خلف ميسرة جيش الأندرزغر ، وأنت يا بسر بن أبي رهم خذ ألفاً من الرجال واكمن خلف ميمنة الأندرزغر وإياكم أن يكتشفكم أحد عليكم بكل الحيطة والحذر وانطلقوا الآن من فوركم راشدين . ولا تشنوا الغارة إلا بعد أن تحتدم المعركة ويحمي وطيسها ويتعالى غبارها وفي اللحظة التي ترونها مناسبة للمباغتة والمساعدة المباغت للفرس والمساعدة لنا وعليكم الخروج بلحظة واحدة يصدعان بالأمر ، ويخرجان من أجل تجهيز الرجال للرحيل .
خالد : أنت يا سويد بن مقرن تبقى في مؤخرة الجيش في الحفير وإياك ومغادرته وإياكم والغفلة والاغترار وقلة الاحتراز .

هكذا نرى خالد قد رتب أمر الجيش وأمر المسير و، ولذا نادى مناديه أن شدوا الرحال وإلى الولجة بسم الله وعلى بركته وعلا التكبير وصهيل الخيل ورغاث الجمال وانطلق الجيش على بركة الله على نفس تعبيته السابقة وحال وصوله الولجة حمل على الأندرزغر ، وكانت مفاجأة تامة للفرس وانهال خالد وجنده على الأندرزغر وجنده ومن تأشب إليه من عرب الضاحية والدهاقنة نزول البلايا التي تحمل المنايا و تعاركوا عراكاً شديداً واحتدم القتال بكل حفيظة وحماس وإصرار على النصر حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ . ونرى خالداً أثناء غاراته على معسكر الأعداء يتلفت يمنة ويسرة وقد استبطأ كمائنه ، ولكن ما هي إلا لحظات إلا والغبار قد سد الأفق خلف الأندرزغر ، ووقع سنابك الخيل يهز الأرض تحت الأقدام وبدأت طلائع الفرسان تظهر من خلف جيش الأندرزغر .. وانتعشت آمال الأندرزغر وجنوده لحظات إذ ظنونا أنهم نجدتهم بقيادة بهمن جاذويه ولكنها لحظات أخرى وعلا نداء الله أكبر يشنف آذان المسلمين ويصم آذان الفرس . وعندما رأى الفرس أ، فرسان المسلمين من نخلفهم وقد بدؤوا بحصادهم ، وخالد وجيشه من أمامهم ، فلم يبق للصبر منزع ، ولا إلى الجلاد متسع ، وحاولوا الفرار من الإحاطة التي تمت لهم ، ولكنهم قتلوا شر مقتلة ، ولم ير رجل منهم مقتل صاحبه ، وانهزم الأندرزغر هائماً على وجهه ، فمات عطشاً .

حمد خالد وجنده الله سبحانه وتعالى على هذا النصر المؤزر ، وأقام خالد في الولجة يتحسس الأخبار ويبث العيون ليكون على جلية من الأمر وحقيقة الموقف لدى الفرس ، وحتى لا يؤخذ على حين غرة ، وخصوصاً أنه يعرف أن هناك جيشاً آخر بقيادة بهمن جاذويه معسكراً بقسيانا وقع الخبر وقوع الصاعقة على بيوتات الحيرة وقصورها ، إذ أن في هذه المعركة اشتركت أعداد كبيرة من عرب الضاحية والحيرة من فرسانها وأبطالها إلى جانب الفرس كما مر معنا آنفاً .

وها نحن نرى عمرواً في قصره .
عمرو : يروح ويجيء في قاعة قصره بعصبية ظاهرة وبغضب جامح حانق وهو

يضرب كفاً بكف .
تدخل عليه أخته كرامة ومعها وصيفتها صفية ، وهو على هذه الحال من الغضب والهستيريا فاستجمعت شجاعتها وتوجهت إليه بالخطاب وتظاهرت كأنها لا عرف سبب هذا الغضب الشديد .
كرامة : أخي الحبيب ، ما لي أرى الغضب قد استبد بك إلى هذه الدرجة ؟ رفقاً بنفسك وهون عليك يا أخي .
عمرو : ماذا تقولين يا كرامة ؟! " بصوت حاول أن يكون متزناً ومتماسكاً " ألا تريدينني أن أغضب بعد هذا الذي سمعناه ومن هؤلاء الفلال الذين وصلوا إلى الحيرة ..
كرامة: أجل .. تقصد تلك المذبحة التي حلت بالأندرزغر ومن معه من العرب على يدي خالد وجيشه؟
صفية : إن خالداً هذا لا يقف بطريقه شيء ، إنه كالسيل الجارف ..ملمحة إلى فضل خالد قائلة :
" ألا يكفي أنه خلصنا من هرمز وبطشه " .
عمرو : يا صفية ، أنسيت أنه أيضاً قتل أهلنا وبعض فرساننا من عرب الضاحية والحيرة؟؟ بغضب : لا وألف لا .. سنقف بطريقه ونصده ، إنه لم يخبر بعد فرسان الحيرة وصناديدها .
مواصلاً كلامه لها :
ألم تعرفا ؟؟
كرامة : وماذا نعرف ؟؟
عمرو : لقد راسلنا بهمن جاذويه أن نلتقي جميعاً ومن معه من الجند قرب أُليس ، وقد تواعدنا على ذلك .
كرامة : يا أخي ما لم ولهذه الحرب ، إنها تأكل الأخضر واليابس ، ثم لماذا لا نكون على الحياد وندعه وجيوش فارس ؟؟ فإن انتصر على فارس يكون قد أراحنا من شرهم وظلمهم ونجونا نحن ، وإن انتصرت الفرس لم نخسر نحن شيئاً أيضاً .
صفية : ثم لا تنسوا أنه عربي مثلنا ، وكما قلت أراحكم من هرمز .
عمرو : بصوت فيه حدة : هيه يا امرأة ، لا نريد منك رأياً ولا مشورة ، كذلك أنت يا كرامة .. كيف نقف على الحياد .. وهل ترضى فارس ذلك منا ؟؟ .. ثم أنسيت أنه أصبح لنا عنده ثأر كبير .
كرامة :أتقصد الذين أصابهم من بكر بن وائل يوم الولجة ؟!
عمرو : أجل ، لقد أصاب أناساً كثيرين وهم أهلنا وإخواناً ، ولقد قتل خالد يوم الولجة ابناً لجابر بن بجير وابناً لعبد الأسود العجلي .
كرامة : لهذا إذن نجد عبد الأسود يحرض الناس على قتال خالد ومناجزته .
صفية : إنني لا أزال أقول أن خالدا لا يقف في طريقه شيء ، أليس هو الذي قتل هرمز وقتل الهرمزان يوم الولجة والذي يعدل ألف رجل .

كرامة : كذلك يقولون عنه أن نبيهم قد سماه سيف الله المسلول ، ولذلك لا يقف في طريقه فارس ولا بطل .
عمرو : أتصدقان تلك الخرافة . ثم لقد فات الوقت على هذا الرأي والعرب قد اجتمعت بأليس كما أسلفت لكما ، وشرفي ومكانتي بين قومي لا تسمحان لي بأي تراجع ، وليس أمامنا إلا مناجزة خالد .
مواصلاً كلامه ..
ثم كأنكما نسيتما ذلك المدعو شويل إنني سوف أبحث عنه أثناء المعركة لأقضي عليه وأشفي غليل صدري ..
يصفر وجه كرامة ويظهر عليها الخوف والاضطراب ويلاحظ أخوها ذلك عليها متسائلاً .. ما بالك يا كرامة أتشعرين بشيء ؟
كرامة : لا شيء ، ولكني خائفة من هذه الحرب .. خائفة جداً ..
عمرو : لا .. لا تخافي ، لقد تم إعداد كل شيء ، وكذلك تم تلافي كل السلبيات التي صاحبت كاظمة والولجة ، كذلك لقد سير بهمن جاذويه قائده العظيم جابان مع الجيش إلى الـ" أليس" حيث نحن مجتمعين .
كرامة : وكيف ذلك يرسل الجيش بقيادة جابان ، وأين هو إذن ؟
عمرو : لقد ذهب لمقابلة كسرى أردشير يطلب عونه ..
صفية : إنهم يقولون أن كسرى مريض ولا يقوى على شيء .
عمرو : هيه يا امرأة .. ما لي أراك اليوم لا تحملين إلا أخبار الشؤم .. ؟؟
صفية : سيدي عمرو .. إنها الحقيقة .. ألا تريد سماع الحقيقة ؟؟
عمرو : احتفظي بحقائقك لنفسك أرجوك .
كرامة : إذن من اجتمع بأليس يا عمرو ؟
عمرو : عرب الضاحية والحيرة جميعاً وعليهم عبد الأسود العجلي ، ومعه من الفرسان الأشاوس تيم اللات وضبيعة وزهير وجابر بن بجير ومالك بن قيس وغيرهم من الفرسان .
والآن أريد أن أخرج لألحق بالمعسكرين بأليس .
وصلت الأخبار إلى خالد أن عر بالضاحية والحيرة من تأشب إليهم من عربان تلك النواحي قد اجتمعت في"أليس" كان خالد يعشق الحرب والطراد وصليل السيوف ولا يستطيع أن يملك نفسه عنها إذا عرضت له وجاءت في طريقه .
فما أن جاءته أخبار المجتمعين بأليس حتى سار إليهم يسابق الريح وعلى نفس تعبئته السابقة . وما كان همه إلا عرب الضاحية والحيرة والأعراب حولها ، ولم يكن يعلم أنهم قد تواعدوا مع جابان بالالتقاء جميعاً بأليس ، وما أن وصل إلى هناك حتى رأى الأعاجم من أرز إليهم من عرب قد اجتمعوا على أليس وفي لحظة وصولهم كان قد حان وقت غداء الفرس ومن معهم .

قائد فارسي : أرى أن نغدي الناس ونُري خالداً أننا لا نحفل بهم ولا نلقي لهم بالاً .
عبد الأسود العجلي : لا ليس هذا برأي .. أرى أن نفاجئهم قبل أن يحطوا أثقالهم وركابهم ويستعدوا للمعركة .
جابان : إنني في حيرة من أمري .. ألم يأمرنا بهمن جاذويه بأن لا ندخل في حرب مع خالد حتى يلحق بنا ؟؟ فما رأيكم ؟
قائد آخر من الفرس : لذلك أرى أن نمد البسط ونضع الطعام ولا نلتفت إليهم عسى أن يكفوا عنا بعض الوقت .
عبد الأسود : كما ترى أيها القائد ، إن خالداً لم يدع لنا حيلة من أمرنا حتى نلتزم بأوامر القائد بهمن اجذويه ، ولذا أرى أن نبادر إلى مجالدة القوم ومصاولتهم قبل أن يعجلوكم عن طعامكم ويفاجؤكم ولات حين مندم .
مالك بن قيس : يا قوم .. هذه ليست أول جولة مع خالد ، وقد عرفتم هؤلاء الناس وحبهم للقتال والموت أو النصر ، لذا خذوا حذركم وصادموهم قبل أن يبدأوكم .
جابان : إن تركوكم وطعامكم وتهاونوا لكم فتهاونوا ، ولكن ظني أنهم سوف يعالجوكم ويعجلونكم عن طعامكم ..
استمر الفرس في مد بسط الطعام ، أما خالد حينما رآهم أمر بحط الأثقال ، وكان على تعبية كاملة لبدئ المعركة والقتال .
خالد : حطوا أثقالكم واستعدوا لقتال عدوكم ، فها أنتم ترون ما يفعلون الآن ، إنهم في شغل عنا وأنت يا قعقاع ومن معك عليكم بحماية ظهري من غدر الأعاجم ، فإني مبارز قادتهم وكبراءهم ودون أن ينتظر جواباً ولا كلاماً اندفع كالسهم ، فإذا هو بين الصفوف وينادي بأعلى صوته :
من يبارز ؟ أنا خالد بن الوليد الذي عرفتموه وسمعتوا عنه ، أنا سيف الله المسلول، أين عبد الأسود ؟ أين أبجر ؟ أين مالك بن قيس ؟
لما رأى جابان ذلك وقد سدت نفسه ونفس من معه من القادة عن الطعام قال لقادته :
جابان : أما والله ما دخلني من رئيس وحشة قط حتى كان هذا اليوم .
الفارس الأول : إذن تدع الطعام حتى نفرغ منهم .
الفارس الثاني : أجل نفرغ منهم ونعود إلى طعامنا ، دعوة ممدوداً .
جابان : يا قوم سموا هذا الطعام .
الفارس الأول : كيف هذا ؟ أنسمم طعامنا ونحن له عائدون بعد الفراغ من هؤلاء الرعاع ؟
جابان : يا لك من أحمق مغرور ، فإن كانت لكم فأهون هالك ، وإن كانت عليكم كنتم قد سنعتم شيئاً وأبليتم عذراً .
عبد الأسود : هذا هو الرأي سموا الطعام .
الفارس الثاني : لا ورأس كسرى لا نسمم طعامنا أبداً ، وما هي إلا ساعة ونكون قد فرغنا منهم وعدنا إلى طعامنا .

جابان : لما رأى عدم طاعتهم له قال :
ما أظنكم " والنار المقدسة " إلا لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون ، ثم قسم جابان قادته فقال :
عبد الأسود على الميمنة ، وأبجر على الميسرة ، ثم خاطبهم قائلاً :
يا قوم إياكم والتخاذل .. اليوم يوم المعمعة ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تعتز فارس ونقضي على هؤلاء الرعاع الذين غرهم دينهم ورمتنا بهم صحراء جزيرتهم ، وهذا هو بهمن جاذويه سيصل عما قريب بجيوش فارس فيكون لنا خير عون وسند ، ونقضي على هؤلاء القضاء المبرم .
أما هؤلاء الذين دعاهم خالد إلى البراز والمبارزة فنكلوا عه جميعاً إلا مالك بن قيس.
فقال له خالد : يا ابن الخبيثة ، ما جرأك علي من بينهم وليس فيك وفاء . وما هي إلا أن أعجله بضربة أطاحت برأسه . وبعد أن قتل خالد مالكاً . التحم الجيشان واقتتلوا قتالاً شديداً والمشركون يزيدهم كلباً وشدة ما يتوقعون من مقدم بهمن جاذويه لنجدتهم . أما المسلمون فقد صبروا صبر المحتسبين المنيبين كالجبال الرواسي ، لا يتزحزحون عن مواقعهم قيد أنملة إلى الخلف . وعلا غبار المعركة وارتجت الأركان بالله أكبر ، وبصوت القراء يقرؤون سورة الأنفال ، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم بلاء حسناً ، وكان خالد يفلق الصفوف وتنزاح أمامه المئات من الرجال ، وكأنه الموج الكاسح الذي لا يقف في طريقه شيء يهد الناس هداً بسيفه ورمحه حتى أصبح فارسان فارس والعرب يبتعدون عن طريقه ، ولا يقتربون منه ، وأخيراً وقبل زوال الشمس انكشف ظهر الفرس وبدؤوا يتراجعون منهزمين ، وأثخن خالد وجيشه القتل في الفرس ومن معهم حتى أصبح ماء النهر دماً عبيطاً واصطبغ بالحمرة القانية لكثرة الدماء التي سالت فيه ، وسمي ذلك النهر بنهر الدم .
عاد عمرو ومن نجا معه من أهل الحيرة وعرب الضاحية من الفلال والمنهزمين يلوون على شيء ، وعندما وصل إلى قصره استقبلته أخته فرحة بقدومه .
كرامة : أهلاً أخي ، وأهنئك أن عدت لنا سالماً . الآن استرحت واطمأن قلبي .
عمرو : على ماذا تهنئيني ؟ على هزيمتنا وخزي الدنيا وذل الأبد .
كرامة : لا تقسو على نفسك يا أخي ، وأنا لا تهمني إلا سلامتك .
عمرو : لا .. بل ليتني مت في المعركة قبل أن أرى هذا الذل ، ألا ليتني مت .
كرامة : لا يا أخي ، أبعد الله عنك كل سوء ومن لي بعدك إذن .
صفية : مترددة في الحديث وتخشى من غضب عمرو .. ولكنها استجمعت أطراف شجاعتها وقالت متسائلة :
قل لي يا سيدي عمرو .. كيف وجدتم هؤلاء المسلمين ؟ وكيف كان خالد ؟ أهو ما يصفونه لا يقف أمامه فارس أو صنديد .
عمرو : وهو يحاول أن يتماسك ويستعيد بعض روعه وهدوء نفسه :

حقاً يا أختاه إننا قابلنا أناساً لا عهد لنا بمثلهم من قبل ، إنهم لا يخشون الموت ولا يهابون الأجل وخصوصاً عندما تنطلق حناجرهم بهتافهم الغريب الله أكبر ، فتدوي له الأركان وتزلزل له قلوب الشجعان فتطير الأنفس شعاعاً من الخوف .
كرامة : إنني أسمع العجب يا أخي ، أليسوا ببشر مثلكم ؟؟
عمرو : نعم يا أختاه .. لولا أنني رأيتهم بشراً مثلنا لقلت بل إنهم جن .. أجل .. نحن كنا نقاتل جناً لا بشراً لا يعرفون التراجع مطلقاً ولا يهابون السيوف وصليلها ، ولا الجياد وصهيلها . رماحهم مشرعة وسيوفهم مبرقة مرعدة وسهامهم لا تخطئ أحداً .
صفية : نعم إنه دينهم الجديد الذي خلق منهم أناساً لا عهد للناس بمثلهم .
عمرو : فعلاً إن لديهم سراً ، وإلا كيف نستطيع أ، نفهم هذا النصر الكاسح على جموعنا وجموع فارس ونحن أضعافهم .
آه يا كرامة لو رأيت خالداً وقد طلب المبارزة وسمى الفوارس بأسمائهم ، وقد نكلوا عن مبارزته ميعاً إلا المسكين مالك بن قيس الذي لم يمهله خالداً إلا لحظة وكان رأسه يتدحرج من بين كتفيه . ومالك الذي تعرفين شجاعته وفروسيته إنه فعلاً لا بد وأن يكون كما سماه رسولهم سيفاً من سيوف الله المسلولة ، وإلا ما كل هذه القوة والبطشة التي يبطش بها في الناس ؟! إنه يفلق الفرسان فلقاً ويهد الناس بسيفه هداً لا يقف أمامه شيء .
صفية : أرأيت الحقيقة بأم عينيك ..كنت تنهرني ولا تريد سماع الصدق والحق .
عمرو : يا صفية ، إنهم يفوقون كل كلام وكل تصور ، لا يحيطهم وصف ، وإن هؤلاء القوم إن بقوا على هذه الحال لابد وأن يطؤوا عرشيّ كسرى وقيصر .. إنهم لا يغلبون أبداً!!
كرامة : لم تسمع نصحي لقد نصحتك أن تدع هذه الحرب ، ولكنك أبيت وجادلتني .
عمرو : وكيف ذلك يا أخيه ؟؟ .. لا أستطيع أن أعتزل الحرب وكل أهلي وأبناء عمي وعرب الضاحية والحيرة أجمعوا على منازلة ومناجزة خالد .
كرامة : قل كيف كان مسعر الحرب ذاك ؟
عمرو : من تقصدين ؟؟ أظنك تقصدين عبد الأسود .
كرامة : وكذلك بجير وغيرهم من الفرسان .
عمرو : ألم أقل لك لقد نكلوا عن لقاء خالد إلا مالك بن قيس . في الحقيقة لم يجرؤ أحد لا من الفرس ولا من العرب أن يبارز خالداً وجهاً لوجه ، بل كانوا يتجنبون اللقاء به وأولهم جابان .
كرامة : إنه شيء فوق التصور .. لقد جعلتني أتشوف لأرى خالداً من معه من الفرسان .

عمرو : سوف ترينه بكل تأكيد ، إذ لم يبق أمامه الآن إلا الحيرة ، ولا بد أنها وجهته القادمة وكما علمت وتعلمين أنت أن ملكنا إياس بن قبيصة ومرزبان الحيرة قد أعدوا جيشاً لمقاتلة خالد .

كرامة : ومن قائد هذا الجيش يا عمرو ؟

عمرو : لقد وضع الملك ابنه قبيصة على رأس هذا الجيش ، وبدأ الجيش في الخروج من الحيرة ليعسكر قرب فرات بادقلي على الطريق المحتملة لخالد أثناء قدومه إلى الحيرة .

كرامة : لابد وأن يكون مصيره كمصير من سبقوه .

عمرو : على كل حال ليس هناك بد من حرب خالد وعن إذنكما أريد أن أرتاح قليلاً قبل أن ألحق بالجيش .

كرامة : تريد أن تخرج إلى الحرب أيضاً يا أخي ؟ أما كفاك وقعة أُليس !

عمرو : ليس هناك بد ولا مفر من الخروج لملاقاة خالد ، وإن كنت أعتقد أن لا فائدة ترجى .

كرامة : أرجوك إذن دعك من الخروج ، سلمت في أليس ولا ندري ماذا سيحصل في بادقلي .

عمرو : إنني أقدر خشيتك عليّ ولكن ليس أمامي مناص اطمئني .

يذهب عمرو ليرتاح وتبقى كرامة وصفية وحدهما .

كرامة : ما رأيك بما سمعت من عمرو ؟

صفية : هيه .. مالك ؟ .. ألست فرحة بقرب مقدم شويل ؟!

كرامة : والله يا صفية لا أعرف ماذا أقول تنتابني الأفكار والهواجس ، تتوزعني آمال الفرحة وخشية القد وغياب الأخ .

أفرح ساعة أفكر بشويل وقدومه ، وتنقبض نفسي ساعة أفكر بأخي وما عسى أن يكون مصيه ومصير الأهل والعشيرة . وخالد كما عرفت وسمعنا شديد البطشة حديد الإرادة .

صفية : لا .. لا تخشي شيئاً ، إن خالداً من هؤلاء المسلمين الذين لا يؤذون امرأة ولا شيخاً ولا طفلاً ولا يقطعون شجيرة ولا يقتلون شاة إلا للأكل ، ثم إنهم ليسوا شديدين بطاشين إلا على من حاربهم وشن الغارة عليهم .

ثم هل نسيت أنهم لا يبدؤون الحرب إلا بعد أن يعرضوا على من قبالتهم الدخول في الإسلام .. فإن أبى فدفع الجزية ودخل في ذمة الإسلام والمسلمين ، إلا فالحرب على من أبى وعصى .

كرامة : إذن لا يقاتلون إلا من قاتلهم ووقف في طريق دعوتهم وأبى الإسلام أو الصلح مع الجزية ..

صفية : تماماً .. لذا من سالمهم وصالحهم دخل في ذمتهم وعهدهم وحمايتهم .

كرامة : ليت الملك إياس إذن يعصي ذلك الفارسي مرزبان الحيرة ويدخل مع خالد في صلح مع دفع الجزية .
صفية : إنني أعرف إياس ، إنه رجل عركته التجارب وحنكته الأيام ، لذا أرجو أن يكون له من عقله هادياً وينحاز إلى السلم والسلام .
كرامة : أجل أرجو ذلك ، وهكذا يكون قد وفر على نفسه وعلى الناس الحرب وويلاتها وكفى ما لحق النساء من ثكل وترمل والأطفال من يتم في معركة أليس .
صفية : ما رأيك يا كرامة لو أرسلنا من يخبر خالداً بخروج المرزبان والقوم لملاقاة خالد عند فرات بادقلي .
كرامة : من سيخبرهم ؟
صفية : لا عليك .. دعي ها الأمر لي وسوف أرسل لهم من أثق به إن وافقتِني .
كرامة : لا يا صفية لا تفعلي .
صفية : ولما لا ؟ ألا تريدين لقاء شويل ؟
كرامة : أجل أريد ، ولكن خالداً ليس بحاجة لنا ، ولا إلى مساعدتنا ، وهو الذي لا يؤخذ على حين غرة ، وهو من عرفت وسمعت عن حزمه وعزمه وبطولاته ، ولذا لن يقف في طريقه جيش بادقلي هذا .
صفية : لكن واجب الدين الذي آمنا به .. يفرض علينا بذل المساعدة .
كرامة : لا يا صفية .. أرجوك لا أريد أن أسجل على نفسي أنني خنت أخي وبني قومي ، وبذلك سوف عيش بقية عمري معذبة الضمير والخاطر . ثم إن خالداً كما قلت لك ليس بحاجة لنا .. تُرى هل ساعده أحد في معاركه السابقة ؟ .. طبعاً لا .. إذن هو ليس له حاجة بنا وكفى .
صفية : صدقت .. إنه فعلاً ليس بحاجة لنا وها نحن نبقى نتسقط الأخبار ونستطلع ما تأتي به الأيام .
وهكذا تتصرفان .
جاءت الأخبار خالداً بأن المرزبان الأزاذبة في الحيرة قد أعد نفسه وجمع حوله الدهاقين والرجال وجعل ابنه على رأس الجيش ، وقد عسكر ابن الأزاذبة على فم فرات بادقلي مع من تجمع من العرب بقيادة قبيصة بن إياس .
حال جاءت هذه الأخبار إلى خالد تحرك مسرعهاً على نفس تعبئته السابقة وقضى على كل مقاومة له تعترضه في الطريق وقد لقي مقاومة في مدينة أمغيشيا وهي مدينة عامرة كالحيرة وأصابوا فيها من الغنائم ما لم يصيبوا قبله قط ، ولما بلغ أبا بكر الخبر قال :
" يا معشر قريش .. عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد " .
ثم سار خالد من أمغيشيا يطلب من عسكر على فرات بادقلي ، وفي الطريق لاقته بعض فرسان ابن الأزاذبة فأنامهم وسار بأسرع من الريح حتى لا تسبقه

أخباره إلى ابن الأزاذبة وإلى ابن إياس حتى يفاجئهم .. وفعلاً فاجأهم وهم آمنون لغارة خالد في تلك الساعة فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ولكن في النهاية فر جيش ابن الأزاذبة وابن إياس بعد أن قضي على معظمهم ونجا من نجا من شيوخ وفرسان الحيرة وكبرائها .

وهكذا قضى خالد على كل مقاومة كانت تعترض طريقه إلى الحيرة وأصبح الآن وجهاً لوجه مع الحيرة وحماتها وسكانها .

ونزل خالد بجيشه بين الخورنق والنجف حتى يلحق به بقية أصحابه وجيشه استعداداً لفتح الحيرة .

جلس خالد ذات يوم مع أصحابه وقادة جنده يسمرون ويستذكرون المعارك الطاحنة التي خاضوها من الكواظم .. وذات السلاسل إلى أليس فحمد الله سبحانه وتعالى كيف نصرهم على جيوش فارس إحدى أكبر دولتين في ذلك الزمان .

خالد : الحمد لله تعالى لقد نصرنا على عدونا وأمكننا منه ، وكان القضاء على ابن الأزاذبة سهلاً ميسوراً دون عناء كبير .

ضرار بن الأزور : أجل يا أبا سليمان ، إنه توفيق من الله تعالى والإخلاص في سبيل دعوتنا وإسلامنا .

القعقاع بن عمرو : إن مرزبان الحيرة قد هرب ومن معه من الجند بعد أن بلغه مقتل ابنه وموت أردشير كسرى .

خالد : من سيكون كسرى الآتي بعد أردشير ؟

شويل : أظنهم سيختلفون بعد أردشير ولا يجدون من يولونه الأمر وخصوصاً بعد أن قتلنا وقضينا على كثيرين من قادتهم وكبرائهم .

خالد : وكيف ذلك يا شويل .. ألا يوجد وراث للعرش ؟

شويل : لا .. وذلك أن أردشير لما قتل والده قتل كل من يصل نسبه إلى كسرى قباذ ، وهكذا لا يوجد وارث للعرش .

عدي : إذن لا بد من اختلافهم والاختلاف ضعف لهم وقوة لنا ، وهذا أيضاً بفضله سبحانه وتعالى .

سعيد بن مرة : يا أبا سليمان ، إن لشويل مطلب وهو متردد في عرضه لكم ، ولكني أرى أن ساعة الإفصاح عن مطلبه قد أزفت ، لذا أرجو أن تسمع منه مطلبه .

خالد : قل يا شويل .. ولا تخشى شيئاً ، فنحن إخوان .

شويل : إن لي وعداً وعهداً من رسول الله ρ كنت قد طلبته منه يوم الخندق وأجابني عليه السلام إليه .

خالد : وما هو هذا الوعد والعهد ؟

شويل : وعدني رسول الله ρ إن فتح الله عليه الحيرة أن يزوجني من كرامة بنت بقيلة .

خالد : وكيف كان ذلك ؟

شويل : لقد كنت مع الصحابة الذين أعينهم الصخرة يوم الخندق وعندما سألنا

رسول الله عليه السلام أن يساعدنا في كسرها ذكر أن الله سبحانه وتعالى سيفتح عليه وله أبواب الحيرة .
خالد : أجل هذا وقع .
شويل : في تلك اللحظة طلبت منه أن يزوجني كرامة وقال عليه السلام هي لك ..
خالد : أمعك شهود على ذلك ؟
شويل : نعم ، لدي شهود ومنهم أخي هذا عدي بن حاتم .
خالد : هات ما عندك يا عدي .
عدي بن حاتم : إنك يا أبا سليمان قد علمت بأمر الصخرة التي كانت في جزء الخندق الموكول إلى سلمان الفارسي وبعض نفر من الصحابة ، وكان شويل أحدهم .
وأثناء الحفر صادفتهم صخرة صماء صلدة ولم تجد أو تنقع معها معاول وفؤوس أصحاب سلمان واستعصت عليهم . جاء سلمان إلى رسول الله عليه السلام وطلب منه أن يذهب معه ليريه هذه الصخرة الصلدة ، ولما رآها الرسول الكريم أخذ معولاً وضربها ثلاث ضربات فتحطمت ، وكان في كل ضربة بيده الشريفة يخرج منها نوراً يضيء المدينة ، وفي كل مرة يكبر رسول الله " الله أكبر " ويكبر معه المسلمون . وقد سألناه عليه الصلاة وأفضل التسليم عن هذا النور وهذا التكبير ، فقال ما معناه " إنه ρ رأى قصور فار وروما والحيرة وكأن شُرف قصورها كأضراس الكلاب ، وأن أمته ظاهر على هؤلاء الأقوام ، وهنا في هذه اللحظة سأل شويل مسألته بأن يزوجه أو يعطيه الرسول عليه السلام كرامة ، فقال له : " هي لك " .
خالد : صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنا إن شاء الله لموفون بوعد رسل الله عليه السلام وسنعطيكها يا شويل إن أظهرنا الله سبحانه وتعالى عليهم .
شويل : إننا إن شاء الله ظاهرون عليهم وإنك يا أبا سليمان خير من وفى بوعد رسول الله عليه السلام .
عدي : أجل لقد كان يهرف بها دهره .
الحضور : مبارك إن شاء الله يا شويل .. يباركون له وبعد أن تتام وتكامل جيش خالد نراه وقد بدأ يوزع الأوار والقيادات لفتح الحيرة .
خالد : كما تعلمون لقد تحصن أهل الحيرة في قصورها . لذا أرى أن ندخل الخيل والفرسان الحيرة ويبقى بقية الجيش خارجها .
القعقاع : رأي صائب ومن الذي سيقود الفرسان الخيل ؟
المثنى بن حارثة : أرى أن نقسم الجيش إلى كراديس أو مجموعات ، ويوكل على كل مجموعة منهم فارساً يتولى مهمة محاصرة قصر من القصور ومناجزة المتحصنين فيه .
خالد : أجل .. نعم الرأي يا مثنى ، ولذا فإنني أرى أن يقود ضرار بن الأزور مجموعة من الفرسان ويحاصر القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة .

وضرار بن الخطاب يحاصر قصر العُدسيين وفيه عدي بن عدي المقتول .
وضرار بن مقرن المزني يحاصر قصر بني مازن وفيه ابن أكال .
أما أنت يا مثنى فتحاصر قصر ابن بقيلة وفيه عمرو وأخته كرامة .
وأوصاهم خالد قائلاً :
لا تبدؤوهم بالقتال ،وإنما ابدؤوهم بالدعاء ، فإن قبلوا فاقبلوا منهم ، ولا تقاتلونهم ، وإن أبوا فاجلوهم يوماً . ولا تمكنوا عدوكم من آذانكم ليتربصوا بكم الدوائر، ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم ، ثم ودعهم خالد . سار كل قائد مجموعة إلى الهدف الذي وكل به وكان أول من صبح القوم ضرار بن الأزور ، فدعاهم إلى إحدى ثلاث .
الإسلام أو الجزية أو المنابذة والحرب .
أجلهم يوماً كما طلب خالد .. ولكن أهل القصر الأبيض أبوا إلا المنابذة والحرب ، وتعالى صياحهم بالمنابذة والحرب وتنادوا عليكم بالخزازيف .. عندما سمع ضرار كلمة "الخزازيف" خشي أن تكون وسيلة قتال لا علم لهم بها ، لذا تراه قد أمر رجاله قائلاً :
تنحاوا بعيداً حتى لا ينالكم الرمي حتى نظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر بالرجال يرمون المسلمين بالخزازيف" وإذا هي المداحي من الخزف" .
قال ضرار : أرشقوهم بالنبل حتى أعرو رؤوس الحيطان ، وبعد ذلك صاح ضرار بن الأزور يا جند الله شنوا الغارة عليهم .
و هكذا صبح كل أمير من أمراء خالد القصر الذي وكل إليه .. فأكثروا بأهل الحيرة القتل وافتتحوا الدور والداران .. فضج سكان الحيرة وشعبها .
" يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم" ولما رأى أهل القصور أن القتل استشرى واستحر بأهل الحيرة أقبلت كرامة على أخيها عمرو .
كرامة : يا أخي عمرو : إلى متى هذه الحرب الخاسرة ؟ ألا ترى الناس قد ضجوا وأعولوا؟؟
عمرو : وماذا تريديني أن أفعل . ما أنا إلا امرؤ من قوم أفعل ما يفعلون .
كرامة : وإن فقدوا عقولهم يا أخي .. فكن أنت عاقلهم وابدأ بالصلح واحقن الدماء التي تسيل بلا ثمن .
صفية : هذا هو الرأي يا عمرو .. وإلا ستكون مجزرة رهيبة لكم ولأبنائكم وعيالكم .
كرامة : أجل يا أخي أجل .. ثم ما فائدة هذه الحرب وأنتم لا تستطيعون عمل شيء ولا تغيرون بنتيجتها . ثم عن من تدافعون ؟ عن المرزبان الذي هرب بجنده وخلا بينكم وبين قومكم وبني جلدتكم .. ؟؟ أم عن أردشير المتوفى .
عمرو : بل عن الأهل والعشيرة والكرامة والنفس الأبية وإلا ذل الدهر وعار الأبد .
كرامة : ولكن يا أخي ألا تسمعون أهلنا وعشيرتنا في الحيرة يصيحون ويطلبون

أن تكفوا عنهم القتل ، أما تسمعهم يقولون " ما يقتلنا غيركم يا أهل القصور " .
صفية : نعم يا عمرو ، أنهِ هذه المجزرة وابدأ أنت بطلب الصلح ، ولن تندم . ثم إنهم عرب مثلنا وليذهب كسرى وقومه إلى الجحيم أو النار التي يقدسونها .
عمرو : جلس عمرو مفكراً مطرقاً والدمع يترقرق في عينيه .. وهو في قرارة نفسه مقتنع بهذا الذي تقوله أخته وصفية ، ولكن الأمر ثقيل على النفس ثقيل تنهد منه الرواسي الشم، وأخذ يردد بهذه الأبيات وهو حزين كئيب مفتكراً تلك الليالي والأيام التي مرت عليهم بالحيرة وهم في أحسن حال وأرغد عيش وأهنأ بال .
احترمت أخته كرامة صمته وحزنه الكبير وأخذت تسمع بعض الأبيات التي يرددها ..

أبعد المنذرين أرى سواماً ... تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصاً بين مُرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبي قبيس ... كجرب المعز في اليوم المطير
تقسمنا القائل من معد ... علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريمٌ ... نحن كضرة الضرع الفخور
تؤدي الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قريظة والنضير
كذلك الدهر دولته سجال ... فيوم من مساءةٍ أو سرور

ثم استعبر وشرق بدمعه .
كرامة : يا أخي الحبيب .. خفف عنك إنهم عرب مثلنا ، ولم نسمع عنهم إلا مكارم الأخلاق والخلق العربي الأصيل ، ثم إن نودي الخرج إليهم أفضل مائة مرة من أن نؤديه لفارس . لذا قم واحسم الأمر وأوقف هذه المجزرة .
عمرو : حسناً ..حسناً .. ينادي .
يا غلام .. يدخل أحد الغلمان ليأتيني قائد حرس القصر .
جاء قائد الحرس .
عمرو : نادي على الجيش المحاصر لقصرنا وقل لهم يا معشر العرب لقد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً ، وهكذا بعد أن أعلن عمرو قبوله شرط المسلمين تتابع ساكني القصور معلنين قبولهم . وخرجوا من قصورهم إلى قادة المسلمين . عاملهم هؤلاء القادة بغاية اللطف والكياسة والمودة وصحبوهم إلى حيث يعسكر خالد بن الوليد خارج الحيرة .
لما علم خالد بخبر فتح الحيرة قام فصلى صلاة الفتح لله تعالى ثماني ركعات

لا يسلم فيهن . ثم حمد الله سبحانه وأثنى عليه وأخذ مجلسه بين أصحابه .
خالد : لقد قاتلت يوم مؤتة فاندق في يدي تسعة أسياف ثم صبرت في يدي صحيفة يمانية فما زالت معي .
عدي بن حاتم : يا أبا سليمان أريد أن أسألك سؤالاً .
خالد : اسأل يا عدي .
عدي : أي الأقوام التي حاربتها أشد بأساً ولقيت منهم عنتاً شديداً .
خالد : ما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس .
يدخل أحد الجند لقد حضر القادة أيها الأمير ومعهم أمراء وكبراء الحيرة .
خالد : ليدخلوا إلي ..
يدخل إياس بن قبيصة ، وعمرو بن أبي عمرو بن بقيلة اللخمي وعدي بن عدي وحيري بن آكال يحيون خالداً بـ" أبيت اللعن أيها الأمير " .
خالد : لا أيها السادة : إن الله سبحانه وتعالى قد أبدلنا بخير منها فتحيتنا " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " .
دخل معهم خالد في حوار ونقاش طمعاً بإسلامهم فقال لهم :
ويحكم .. ما أنتم ..؟؟ أعرب ؟؟ فما تتقمون من عرب مثلكم أو عجم .. ؟؟ فما تتقمون من الإنصاف والعدل.
عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة أيها الأمير .
خالد : لو كنتم عرباً كما تقولون .. لم تحادونا وتكرهون أمرنا ؟؟
عدي : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية .
خالد : أجل لسانكم عربي ، ولكن فكركم وولائكم ليس عربياً .
إياس : إننا هكذا وجدنا آباءنا وأهلنا أيها الأمير ، ونحن لهم مقتفون .
خالد : ويحكم ، ولو كانوا ضلالاً أتقتفون آثارهم ؟؟
عمرو : أطال الله عمرك أيها الأمير ، إنا وجدنا أنفسنا مع هذا الحي من فارس ندين لهم بالطاعة والولاء ونذب عما تحت أيدينا مما أمرونا عليه .
خالد : إنا جئناكم بخير مما أنتم عليه ولننقذكم من الظلم والعسف والاستبداد إلى آفاق الحق والعدل والإنصاف .
إياس : وبماذا جئتنا أيها الأمير ؟
خالد : بعز الدنيا وخير الآخرة ، جئناكم بالإسلام الذي جاء به محمد ρ فإن دخلتم في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا : إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم .
حيري بن آكال : ثم ماذا غيرها أيها الأمير ؟
خالد : أو الجزية .
عمرو : ثم ماذا أيها الأمير ؟

خالد : أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة .
فقالوا : بل نعطيك الجزية .
خالد : تباً لكم ، ويحكم !! إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان أحدهما عربي فتركه واستدل بالأعجمي إلى التهلكة والضياع .
ثم يتلو خالدا آيات الكتاب الكريم" لا إكراه في الدين" إن الله يهدي من يشاء .
حسناً ستعطن الجزية وعلينا نحوكم الحماية والأمن .
القوم : أجل أيها القائد سنعطيكم الجزية .
خالد : ولكن هناك شرط لا أقبل منكم غيره ، ولن أكاتبكم إلا بعد أن تجيبوني عليه .
تعلوهم الرهبة والدهشة ممزوجة بالخوف ، ماذا تشترط أيها الأمير ؟ يقولونها بلهفة وتوجس .
خالد : إنكم تعلمون أن شويلاً يرغب بالزواج من كرامة ، وها أنا أطلبها من عمرو له .
الجميع يلتفتون إلى عمرو ليروا وقع الخبر عليه ، أما عمرو فقد ظهرت عليه علامات الدهشة والارتباط" ويدور بذهنه مطلب هرمز لها قبل خالد . ما هذه الكرامة التي يطلبها القادة التي قد تكون سبب عاره وذله" .
ولكنه يحدث نفسه إنما هؤلاء عرب مثلنا وشويل نعرفه حقاً ، ولا يُقاس بهرمز أو أي قائد آخر أعجمي . ولكن هل كرامة سوف تقبل ؟ وظن أنه يستطيع أن يتخلص من هذا الموقف الصعب والمحرج أن يرد الأمر إلى كرامة نفسها .
عمرو : يحاول أن يسيطر على ما يعتلج في نفسه من ارتباك وقلق وغضب ويجيب .
عمروا : " أيها الأمير ، إنك تعرف إنها عاقلة راشدة ، ولابد من أن نرد الأمر لها ولا أستطيع أن أجيبك إلى طلبك إلا بعد مشاورتها وأخذ رأيها .
خالد : ونحن في ديننا علينا أخذ رأي الفتاة ، لا بل وموافقتها دون جبر ولا إكراه على من يتقدم لخطبتها . هذه لك ولأختك يا عمرو .
إياس : لقد أنصفك الأمير يا عمرو ، فهيا إلى أختك واستطلع رأيها .
خالد : أجل يا عمرو ، ها نحن هنا ننتظر أن تعود لنا بالجواب .
عمرو : أمرك أيها الأمير . ثم ينصرف .
عاد عمرو مشتت البال ملتاع الخاطر مكدوداً ومنهكاً وهو يفكر بكرامة وما عساها أن تقول .. أترفض أم توافق .. وإذا رفضت ماذا سيكون موقف خالد أيعذر أم يصر على إعطائها إلى شويل .. لكن لا أظن إذ قال هذه لك كأنه متأكد .. ثم أليست كرامة كانت دائماً تكن بعض الميل إلى شويل ، فلماذا ترفض ؟ ألم تحاول أن تمنعني من تحدي شويلاً يوم السباق . ثم إنها كانت تظهر العداء الشديد لعدي

بن عدي وخصوصاً إذا تعرض لشويل بقالة سوء . لا أظنها ترفض شويلاً . لقد طلبها هرمز ورفضناه ، وما أنقذنا من غضبه وسوء فعله إلا خالد . ولكن هذا هو خالد يطلبها لشويل اللعين أيضاً . إنني لم أنسه ولم أنس يوم السباق بعد ، ثم إذا أنا رفضت ، فمن الذي سوف ينقذنا من خالد ؟ وكان في هذه الأثناء قد وصل إلى قصره وهو مشتت البال والخاطر لا يعرف ما الرأي الذي سيتخذه . يهرع كل من في القصر حال قدومه يستطلعون الخبر ، وماذا حصل معه ومع بقية ربعه وجماعته عند خالد وعلى رأسهم جميعاً كرامة. وقد رأت وجه أخيها مكدوداً مهموماً شاحباً ، فأسرعت إليه متسائلة مستفسرة.

كرامة : أخي .. أخي .. ما لي أراك هكذا ! هل حصل لك أو لأحد من أهلنا مكروه ؟ وهل أساء خالد وقادته إليكم .. ؟؟ أسئلة كثيرة ومتواصلة ..

عمرو : لا يا كرامة ، لم يحصل لي شيء ولا لأحد من أهلنا ، وقد قبلنا أن نصالحهم على الجزية ، ولكن هناك أمراً قد يسبب لنا بعض المتاعب مع هؤلاء القوم .

كرامة : أرجوك أفصح ، تكاد قدماي لا تحملاني من الخوف عليك .

عمرو : خالد يا أختاه خالد ..

كرامة : وماله خالد ؟ ألحق بك أي سوء منه أو من جنده ؟ إننا نسمع أنهم أهل نخوة وكرم أخلاق عالية رفيعة .

عمرو : لا يا أختاه ، إنهم كما تقولين ، ولم يلحق بنا أي أذىً منهم ، ولكنه يطلبك يا أختاه..

كرامة : ترتجف كرامة وتظهر عليها الدهشة الشديدة والقلق وتتساءل بصوت خفيض مخنوق لا يكاد يسمع .. يطلبني أنا .. يطلبني لنفسه .. ؟؟

عمرو : .. لا يا أختاه .. يطلبك ليس لنفسه ، ولكن يطلبك لذاك الشويل ..

وهنا يبدو على كرامة علامات الراحة والانفراج ، وإن حاولت أن تسيطر على مشاعرها أمام أخيها حتى لا تفضحها قسمات وجهها .

يواصل عمرو كلامه قائلاً .. أجل يطلب لشويل ويأبى أن يكاتبنا إلا إذا زوجناك من شوي ل.. إنه عار ما بعده عار .. لماذا أنت من دون فتيات وغيد الحيرة .. جميعاً .. لماذا شويل لا يريد إلا أنت ؟

كرامة : تحاول أن تظهر عدم الاهتمام بشويل وطلبه وتتساءل .. وماذا سيكون موقف خالد إذا رفضت ؟

عمرو : يا أختاه .. لا أعرف ماذا سيكون موقفه . إنه اشترط للصلح أن نعطيك لشويل.. ولكن عندما قلت له علي أن آخذ رأي كرامة قال لي دون تردد هذا لك ولها .. لا أعرف كأنه متأكد من موافقتك .

صفية : تتدخل هنا فقط وتقول : تسمح لي يا عمرو بكلمة .

عمرو : تكلمي يا صفية .

صفية : أجل إن خالداً متأكد من رجاحة عقل كرامة وحرصها الشديد على حقن

الدماء وإنقاذ أهل الحيرة وبناتها من السبي والأسر إن دخل خالداً الحيرة محارباً وافتتحها عنوة .
عمرو : ولكن لا بد من سماع رأي كرامة حفظاً لوصية الوالد وحق أخوتها علي أن أحميها وأصونها .
كرامة : شكراً أيها الأخ الشهم ، ولكن أريد أن أسألك .
عمرو : اسألي يا كرامة .
كرامة : أليس شويل منا وعربي مثلنا وعاش بيننا ردحاً من الزمن ؟ كذلك لا أريد أن أكون أنا دائماً سبب متاعبك من عدي .. إلى هرمز .. إلى خالد .. وإذا كان تزويجي من شويل ينقذ الحيرة ويحقن دماء أهلها ويمنع عنهم السبي والأسر فإنها تضحية أقوم بها طائعة مختارة راضية .
عمرو : ولكن يا كرامة .. كيف أسلمك إليهم .. أليس العار والذل لنا بين سادات الحيرة ونحن !
كرامة : أعرف هذا يا أخي ، ولا عار يلحقنا وشويل واحد من ساداتنا أيضاً وكبرائنا .. إنني أفضل ألف مرة أن أقبل طائعة مختارة من أن يدخل خالد الحيرة عنوة ويأخذنا سبايا وأسارى .
ثم يا أخي أليسو هم عرباً وإنهم أصحاب رسالة سماوية من عند الله ، وإنه أفضل لنا مائة مرة أن نكون تحت حكمهم من أن نكون تحت حكم فارس عبدة النيران .
صفية : أجل يا عمرو ، إنهم عرب مثلنا إخوان لنا وقد تحدثت الركبان بعدلهم وسماحة دينهم ورفيع أخلاقهم وطريقة تعاملهم ، فهم لنا أفضل ألف مرة من فارس ودهاقنتها ومعتمديها الذين لا نستطيع أن نعمل شيئاً دون إذنهم وموافقتهم ، ونعمل ونكد في سبي لراحتهم وتقديم الأموال لهم .
فالرأي ما قالت كرامة .. ثم إن شويلاً أثناء وجوده بيننا كان يحبك ويحترمك ، فلا أرى سبباً أن نكرهه ونرفض تزويجه من كرامة .
كرامة : إنه يكرهه بسبب ذاك العذول اللعين عدي .
صفية : أجل إنه وغد وقد أوشك أن يوقعك في مصيدة لا فكاك لك منها لولا قدوم خالد وهؤلاء القوم .
عمرو :" وقد بدت عليه الراحة والاقتناع بوجهة نظرهما "
إذن هذا هو رأيكما ..
كرامة : أجل أخي الحبيب .. فانزع عن كاهلك هذا الحمل الثقيل والهم الرابض على قلبك وعد إلى خالد وأنت منشرح القلب مطمئن البال موافقاً على مطلبه ..
عمرو : أجل .. أجل هذا هو الرأي ولا رأي غيره .
وصل عمرو إلى حيث معسكر خالد ويعلن الحارس عن وصوله عمرو ..
يدخل عمرو وخالد والناس عنده ينتظرون قدوم عمرو وما يحمله من جواب .. اتجهت الأنظار نحو عمرو تستطلع الخبر خصوصاً أكابر أهل الحيرة والذين

يرجون في قرارة أنفسهم أن توافق كرامة وأخوها ويخلصان الحيرة من الحرب والفتح عنوة .
عمرو : ألسلام عليك أيها الأمير .
وعليك السلام يا عمرو .. اجلس بين أهلك وقومك .
يأخذ عمرو مجلسه بين سادة قومه .
خالد : هيه .. يا عمرو ماذا وراءك ؟
عمرو : كل خير أيها الأمير الجليل .. إن كرامة كما يعرف أهل وسادة الحيرة إنها فتاة ذات رأي سديد وبصيرة وحكمة وعقل رشيد ، وقالت إن كان قبولها ينقذ الحيرة ويحقن دماء الناس فإنها أقل تضحية تقدمها لأهلها وبني قومها وهي تقبل بشويل بكل رضا وطيبة خاطر .
انفرجت أسارير الناس وتنهدوا الصعداء بأن الحرب أخيراً قد وضعت أوزارها وسلمت الحيرة من ويلات الحرب والقتال .
خالد : بورك فيك وفيها .
أهل الحيرة وسادتها ..
بورك فيكما يا عمرو .. بورك فيكما يا عمرو ، نحن كنا واثقين من رجاحة عقل كرامة وسديد رأيها .
خالد : الآن أكتب لكم عهدي وأعطيكم ذمتي .
إلينا بالكاتب ليكتب .. فأملى خالد عليه هذا العهد :
بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد .. عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن بقيلة وإياس بن قبيصة وحيرى "جيري" بن آكال وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به .. عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا ، وعلى المنعة ، فإن لم نمنعهم فلا شيء عليهم حتى نمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة " .
ثم وقع الكتاب ودفعه إليهم .
وقبل انصرافهم قال خالد موجها كلامه إلى عمرو : يا عمرو متى نزف كرامة لشويل .
عمرو : بعد ثلاثة أيام أيها الأمير .
خالد : على بركة الله ، رافقتكم السلامة .
عندها تأكد شويل أن كرامة أصبحت له وستكون معه بعد ثلاثة أيام .. توزعته الهواجس والأفكار فما درى أيفرح ويسر للقاء الحبيبة صنو الروح ورفيقة الأحلام أم يحزن ويتألم لأنها لم تقبل منه متابعته على دينه .. يا ترى ماذا سيكون موقفها الآن ؟ هل لا زالت متمسكة بموقفها ورأيها ؟
وبقي شويل على هذه الحال . واستأذن خالداً أن يقيم في قصره برهة من

الوقت ويترك معسكر الجيش على الأقل أيام عرسه ، وبعد أن آذن له خالد بدخول الحيرة .. ذهب إلى قصره ليعهده لاستقبال عروسه وخصوصاً بعد وفاة والدته طالته يد الإهمال وغياب الأهل والغلمان ، وجد قصره مهجوراً مقفلاً وقد غادره ساكنوه من الخدم والغلمان ، فعمل مع أصحابه وأبناء قرابته إلى تهيئة القصر وإعادة الرونق والبهجة إليه ، وفعلاً خلال المدة الوجيزة استطاع أ، يعيد إلى القصر بهاءه ورونقه وأقام أمام القصر سرداق فخم زين بالحرير والديباج والرايات والأعلام وأصبح القصر خلية نحل يعج بالرائحين والقادمين وبفرسان المسلمين وأصحاب شويل وأبناء قرابته وأهله وعم الفرح الجميع وطفحت البهجة والسرور على الوجوه . وعندما حان الموعد اختيرت ثلة من الفرسان والأبطال الأشداء وعلى رأسهم عتبة وسعيد وأعد ذلولاً كريماً وعليه هودج محلى بالخز والديباج يتسع لثلاثة أشخاص لتحلم به كرامة ووصيفتها صفية وذهبت الفاردة إلى قصر ابن بقيلة حيث تقيم كرامة . فلما وصلت الفاردة إلى القصر وجدته قد زين بالبيارق والأعلام والأزهار والورود وأغصان النخيل ، وهناك استقبلهم ابن بقيلة بالترحاب والسلام ، وبعد أن أسقاهم الماء والشراب تقدم إليه سعيد وعتيبة طالبين إليه أن يخرج كرامة إلى هودجها . وفعلاً جاءت كرامة وهي تتهادى بثوب العرس الجميل الموشى بالقصب والخز وخيوط الحرير والذهب ، وكان أخوها عمرو ممسكاً بيدها وتسير خلفها وصيفتها صفية وبعض أترابها ولداتها وبنات حيها يهزجن ويزغردن وهي ضاحكة الوجه باسمة المحيا حتى أوصلها أخوها إلى هودجها ، وهناك ركبت ومعها وصيفتها وارتفعت أهازيج البنات وحداء الرجال وسار جملها وخلفه جمال أخرى تحمل هوادج ركبت فيها أترابها وقريباتها ولداتها .

وعادت الفاردة وهي في غاية الانبساط والهرج والمرج والفرسان يتسابقون بجيادهم وخيولهم ويظهرون ألواناً جميلة من اللعب بالسيوف والرماح .

أخيراً وصلت كرامة إلى قصر شويل وساعدوها على الترجل من هودجها واستقبلت بالزغاريد والغناء ونقر الدفوف وساروا وهم يرقصون ويحدون أمام العروس حتى أدخلوها إلى حيث أعدوا لها متكئاً فخماً في القاعة الرئيسية في القصر ، وبعد أن أخذت مجلسها جاء الفرسان ومعهم شويلاً وأدخلوه إلى حيث تجلس عروسه وأجلسوه على جانبها بعد أن سلم عليها وصافحها وعيونه تفيض فرحاً وبشراً بهذه الساعة التي حلم كثيراً بها والتي كانت أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . انتصبت كرامة واقفة واستقبلته أيضاً بترحاب ظاهر وود باد على محياها ويكاد البشر يطفح من وجهها ، وفاضت عيناها بدموع الفرح والغبطة وهي تحملق به وكأن عيونهما تقولان ها قد التقينا بعد طول تفرق ونأي حتى ظنا ألا تلاقيا ، جلسا برهة من الزمن والناس أمامهم وحولهم في هرج ومرج وفرح وسرور وغبطة ، وبعد أن رقص الراقصون بالسيوف انفض السامر وخلا المكان من السمار وعاد كل إلى حيث يقيم في مسكنه أو معسكره ، وخلا الحبيب إلى حبيبه .

شويل : نظر شويل إلى كرامة وهو يمسك بيديها الاثنتين بين يديه .. وهو يقول : الحمد لله، لقد من الله سبحانه وتعالى علينا أن جمع شملنا بعد طول انتظار وولى طائر الفرقة والحسد إلى الأبد ..

لو تعلمين يا كرامة كم من الليالي قضيتها مسهد الجفن مقروح الفؤاد وطيفك

لا يغيب عن البال والخاطر وأفكر في ساعة اللقاء وإن كان الجهاد في سبيل الله وصحبة الصحاب يخفف عني ويكون بعض سلوتي .
كرامة : " تسمع حديثه وهي مطرقة خجلى من شويل وكأنها تراه لأول مرة" وأخيراً استجمعت شجاعتها وطردت بعض شعور الخجل والحياء لتقول له :
وأنا كذلك يا شويل قضيت أياماً صعاباً عصيبة ويلي غيابك وويلي ذلك الداهية اللعين عدي ، وكانت قاصمة الظهر وفاة الوالد وغياب الصدر الحنون الذي كان يحميني من كل مكروه ، وخصوصاً عندما رفض طلب عدي ليدي وأخذه موثقاً من أخي أن لا يكرهني على ما لا أحب وأكره .
شويل : نعم هذا بعض الذي كنت أخشاه عليك وأن تكرهي على ما لا تريدين .
كرامة : لقد كان أخي عمرو بغاية اللطف والعطف علي بعد ذهاب الوالد ، ولذا رفض رفضاً باتاً أن يجيب طلب عدي .
وكذلك كان عدي قد ذكرني أمام هرمز وبعض هذا أيضاً يطلبني وأيضاً تحمل أخي كل مكروه ممكن أن يقع له ورفض طلب هرمز وأمام الملك إياس ولولا قدومكم ما كنا نعلم ماذا يمكن أن يفعل بنا هرمز وجنده وهو من عرفت بطشاً وظلماً .
شويل : إذن احمدي الله تعالى أن بعث لكم خالداً .
كرامة : أجل إنني أحمد الله لذلك وقد قلت لأخي أن الله رحمنا إذ خلصنا من هرمز وبلواه من حيث لم نحتسب .
شويل : " يشعر شويل أن حديث كرامة أصبح يدل وكأنها تؤمن به" ولذا ضج الفرح في داخله وخفق قلبه ضارعاً إلى الله تعالى أن تكون كرامة قد اهتدت إلى ما دعاها إليه أو ربما أصبحت قريبة من الإسلام ، لذا تراه قد ابتعد قليلاً عنها وأخذ يحدثها وقد أدار ظهره .
" أجل يا كرامة .. إن الله سبحانه وتعالى قد خلصكما من هرمز وشروره من حيث لم تحتسبوا ، ولذا أشعر بسعادة طاغية لذلك ، وأنه من الله تعالى وفضل أن خلصك لتبقي لي وحدي .. أجل وحدي .
كرامة : تدور لتقف أمامه وهي تقول بعيون والهة وحب يطفح من وجهها بشرا وحبوراً.. أجل أيها الحبيب .
شويل : ولكن يا كرامة هناك شيء لا يزال يؤرقني ويشعرني إنك لا تزالين بعيدة عني بعض الشيء ، وهذا يثلم سعادتي ويسبب لي القلق والترقب .
كرامة : فداك أبي وأمي أيها الحبيب . ماذا تقول ؟ .. أي شيء هذا الذي يثلم سعادتك ويبعدني عنك ؟؟
شويل : إنك تذكرين ذلك اليوم البعيد الذي حدثتك فيه عن الإسلام والإيمان بالله الواحد الأحد ، وكيف أنني كنت أرغب أن تتابعيني على ديني ، ولكنك لم تجيبي إذ كان يتوزعك أكثر من خاطر ويبلبل عقلك أكثر من سب وبلبال ، وها أنت الآن أصبحت معي ولي وحدي ولا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يؤثر عليك أو يسبب لك

المتاعب والآلام .
كرامة : تقفز أمامه فرحة جذلى كالطفلة فيعمر الزهور وهي تلاحق فراشات نيسان .
شويل أيها الحبيب ، إنك على حق وصواب ، وقد آمنت وأسلمت من زمن .
شويل : " عند سماعه كلماتها " نجده قد اتجه إليها بكليته والفرح والسرور يفيض من كلماته وتعابير وجهه وقد فتح ذراعيه وسمعهما وضمها إلى صدره جذلان مسرور وهو يربت على كتفيها ويحمد الله سبحانه وتعالى على نعمائه قائلاً :
أجل أيتها لحبيبة كنت واثقاً برجاحة عقلك وحسن تدبيرك وسلامة رأيك . إنك لا بد وأن تهتدي إلى الخير والفلاح طريق الإسلام والإيمان .. الحمد لله .. الحمد لله " ومتى خفق قلبك بالإسلام .
كرامة : من زمن بعيد ورعى الله صفية إنها وصيفة وصديقة خير ، لقد ساعدتني ومهدت الطريق أمامي لأصل إلى طريق الإسلام والإيمان ، ومنذ ذلك الوقت ونحن نكتم إسلامنا عن الجميع ، وكان هو درعنا وحامينا الذي نلجأ إليه إذا ادلهمت الخطوب وضاقت بنا السبل .
شويل : يا رعاك الله يا كرامة أنت وصفية .. يا رعاكما الله .. الحمد لله .. اللهم ربي لك الحمد ولك المن والفضل .. اللهم انصر دينك وأعز جندك وانصرنا ربنا على دول الكفر والضلال والظلم والفساد .
وهكذا غمرتها السعادة ورفرف فوقهما طائر الحب والخير وما هي إلا ليالي قليلة قضياها معاً حتى طرق أسماعهما نادي الجهاد أن حي على الجهاد .. حي على الجهاد .. هبوا يا جند الله إلى الجهاد في سبيله .
إذ أن خالداً قد أمر بالاستعداد للمسير والخروج من الحيرة عوناً ونجدة لعياض بن غنم قائد أبي بكر الآخر إلى أعالي العراق وقد استخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو . نهض شويل سريعاً كأسد الغابة فارتدى لباسه وتوضح بسيفه ولبس لأمة حربة استعداداً للخروج .
كرامة : أيها الحبيب شويل ، هكذا سريعاً تغادرنا ؟
شويل : أجل أيتها الحبيبة هكذا .. ألا تسمعين نادي الجهاد في سبيل الله .. ومن يتثاقل عن نادي الجهاد إلا من كان له عذر يقبله الله ورسوله ، واعلمي يا رعاك الله .. إن الصلاة عمود الإسلام وإن ذروة سنامه الجهاد ، واعلمي أيتها الحبيبة : أن الإسلام سيبقى عزيزاً موهوب الجانب قوي الشوكة لا يطمع فيه طامع ولا يعتدي عليه معتد .. ما زلنا لراية الجهاد رافعين ولأمر ربنا طائعين وعلى هدي نبينا – صلى الله عليه وسلم – سائرين ومتبعين .
كرامة : تودعه عند باب القصر .. على بركة الله أيها الحبيب وحفظه .. نصركم الله سبحانه وتعالى على عدوكم وعدوه وأعادك إلي سالماً غانماً .
يخرج شويل على ظهر جواده مسرعاً ملبياً داعي الجهاد يرتل بعض الآيات

الكريمة في سورة الأنفال العظيمة ، وهذه السورة سميت أيضاً سورة الجهاد ، ومن بعد بدر أصبحت السنة قراءتها قبل دخول المعارك وأثنائها وبعدها .

تمت بحمد الله تعالى وأرجو أن ينتفع بها من أتيحت له فرصة قراءتها وما كان دوري كما قلت في أولها إلا الراوي والمتتبع لأخبار أبطالها من أول يوم في الحيرة إلى آخر يوم في الحيرة بعد فتحها أيضاً .